سُورَةُ الأنْعَامِ

مكية وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعليقُ الحمد باسم الذات، للإيذان بأنه عزَّ وجل هو المستحقُّ له بذاته، ووصفُه بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له باعتبار أفعاله العظام، وتخصيصُ خلقهما بالذكر، لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية، التي أجلّها نعمة الوجود، الكافية في إيجاب حمده تعالى على كل موجود، أخبر تعالى بأنه حقيقٌ بالحمد، ونبَّه على أنه المستحق للحمد، على هذه النعم الجسام، حُمِدَ أو لم يُحْمد، ليكون حجةً على الذين هم بربهم يعدلون، وجَمَعَ السَّماءَ وقدَّمها لشرفها، وأشرفيةُ السماءِ لأنها محلُّ الملائكة، وقبلةُ الدعاءِ، ومعراجُ الأرواح الطاهرة، ومعظم آيات الله فيها، وغير ذلك، والمراد من

الخلق: الإنشاءُ والإيجاد، أي أوجد السماوات والأرض، على ما هما عليه، ممّا فيه آياتٌ للمتفكرين ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ جَمَع الظلمات لكثرة أسبابها، ولم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمات إلاَّ جمعاً، لأن النور شيءٌ واحد، وإن تعدَّدت مصادره، وأما الظلمات فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام، وهي كثيرة، والمراد من الظلمات: ظلمةُ الشرك، والنفاق، ومن النور: نورُ الإسلام، وقيل: المراد حقيقة النور والظلام، فهما مظهر من مظاهر القدرة الباهرة، عبَّر تعالى عن إحداث النور والظلمات بالجعل، تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما، بل لا بدَّ لهما من خالق مبدع، وهو الله رب العالمين ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العدلُ بمعنى العدول أي الانصراف، والمعنى: أنه سبحانه خلق هذه الأجرام العظام، التي دخل فيها كل ما سواه ثم هؤلاء الكفرة، الجاحدون للنعم، يسوُّون به تعالى غيره، ممن لا يقدر عليها، وهم في قبضة تصرفه، وثُمَّ، لاستبعاد ما وقع من الكفرة وللتوبيخ، أي وبعد كل هذه الدلائل، يشرك الكفار فيسوُّون بين الأوثان والرحمن.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى للكل، وآدم هو أصل البشر خُلق منه، وتخصيص خلقهم بالذكر، من بين دلائل البعث، لما أن محل النزاع بعثهم، وكلُّ البشر له حظ من إنشائه منه، حيث لم تكن فطرة آدم مقصورة على نفسه، بل كان أنموذجاً منطوياً على فطرة آحاد الجنس، وقيل معنى خلقكم منه، من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وأياً ما كان ففيه من وضوح الدلالة، على كمال قدرته تعالى على البعث، فإن من قَدَر على إحياء ما لم يشمَّ رائحة الحياة قط، كان إحياء ما قارنها أظهر قدرة ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ أي كتب لموت كل واحدٍ منكم ﴿أَجَلًا﴾ خاصاً به من الزمان، يفنى عند حلوله لا محالة، وكلمة «ثم» للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم، وبين تقدير آجالهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو أجل القيامة، وقيل: الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، وهو الأوفق لما روي عن ابن عباس قال: إن الله

قضى لكل أحد أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه، فإن كان براً وصولاً إلى الرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر وإن كان فاجراً قاطعاً نقص من أجل العمر، وزيد في أجل البعث، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُعمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾[1] ﴿عِندَهُۥ﴾ أي وأجلٌ مثبتٌ ومبيَّنٌ في علمه تعالى، لا يتغيَّر، وتسميته أجلاً باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامترائهم، بعدما ثبت أنه خالقهم، وخالق أصولهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإبداع الحياة فيها، وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمعها ثانياً، والامتراء في الشيء: الشكُّ فيه، ولا شك في أن لكل فرد أجلاً في علم الله تعالى، فلا يتغير، ولا يقتضي هذا نفي الأسباب، فإن صلة الرحم من أهم أسباب هناء المعيشة، وهناءُ المعيشة من أهم أسباب طول العمر، وكذلك الدعاء الذي منشؤه قوةُ الإيمان، التي تقاوم الهموم والأكدار، اللذان يهرمان قبل أوان الهرم.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ مسوقة لبيان شمول أحكام إلٰهية لجميع المخلوقات، وإحاطة علمه بأعمال العباد ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المستحق للعبادة فيهما لا غيره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾[2] كأنه قيل: وهو المعبود فيهما ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتم، وما جهرتم به، من الأقوال، والأفعال. والمراد من السر ما يخفيه الإنسان في ضميره، وبالجهر ما يظهره، وفائدةُ ذكر الجهر للمقابلة، والتأكيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير وشر، فيثيب عليه ويعاقب وقيل: أريد بالسر والجهر: ما يخفى وما يظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح وتخصيصها بالذكر لإظهار كمال الاعتناء بها، لأنها التي يتعلق بها الجزاء.

---

(١) سورة فاطر، آية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٤.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن، التي من جملتها تلك الآيات الناطقة ببدائع صنع الله تعالى ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه، وإيثار الجملة على أن يقال: «إلا أعرضوا عنها» للدلالة على استمرارهم على الإعراض، حسب استمرار الإتيان، كما يفصح عنه كلمة «لمَّا» في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني كذَّبوا بالقرآن المنير الواضح، وهو كاللازم لما قبله وكالدليل عليه، على أنهم لما أعرضوا عن القرآن، وكذَّبوا به، وهو أعظم الآيات، فكيف لا يعرضون عن غيره؟ والمراد من الحق القرآن الذي أعرضوا عنه، عبَّر عنه بذلك، إبانةً لكمال قبح ما فعلوه، فإنَّ تكذيب الحق مما لا يُتصور صدوره عن عاقل ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم و«سوف» لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي فسيأتي البتة وإن تأخر، و«ما» عبارة عن الحق المذكور، عبَّر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإبهامه، والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الذي يعظُم وقعه، وأنباؤه تعالى عبارة عما سيحلُّ بهم من العقوبات العاجلة، من القتل، والسبي، والجلاء، ونحو ذلك. رتب الله تعالى أحوال الكفار على ثلاث مراتب: **الأولى**: كونهم معرضين، **والثانية**: مكذبين، **والثالثة**: مستهزئين فبين الله

تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب، وسينالون جزاء هذا التكذيب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ مسوق لتعيين ما هو المراد بالأنباء، التي سبق بها الوعيد، والقرْنُ: عبارةٌ عن أهل عصر من الأعصار[1]، والمعنى: ألم يعرف هؤلاء المكذبون المستهزئون، بمعاينة الآثار، وتواتر الأخبار، كم أمة أهلكنا من قبل خلقهم؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأضرابهم؟ ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً، وأعطيناهم ما تمكنوا به من أنواع التصرف فيها ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من القوة والسعة في المال، والاستظهار بالعدد والأسباب والخطاب لكفرة قريش ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّدْرَارًا﴾ مغزاراً كثير الصبّ، وهو صيغة مبالغة من قولهم: درَّ اللبن، ويقال: سحاب مدرار إذا تتابعت أمطاره ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت مساكنهم، وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم، مستمرة على الجريان، والمراد أنهم عاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، وأعطيناهم ما لم نعط أهل مكة، ففعلوا ما فعلوا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ فما أغنت عنهم تلك العُدَد والأسباب ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أوجدنا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاك كل قرن ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً من الهالكين، والمعنى: أنه تعالى كما قدر أن يهلك من قبلكم وينشىء مكانهم آخرين، يقدر أن يهلككم يا أهل مكة، وهذا بيان لكمال قدرته تعالى، وفي الآية ما يوجب الاعتبار، فإنهم مع ما كانوا عليه من العَدَد والعُدَد أُهلكوا لكفرهم، فكيف بمن هم أضعف منهم؟

---

(١) القرونُ جمع قرن، وهو أهلُ كل زمان، مأخوذ من الاقتران، كأنَّ أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم، وقيل: القرنُ مائةُ سنة.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل، لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله وأنك رسول الله، والقرطاسُ: الورقُ الذي يكتب فيه ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي الكتاب ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بعدما رأوه بأعينهم، بحيث لم يبقَ لهم في شأنه اشتباه، والرؤيةُ واللمس أقوى اليقينيات الحسيّة، ولا سيما إذا اجتمعا ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ جواب «لو» أي لقالوا تعنتاً وعناداً للحق، وإنما وضع الموصول موضع الضمير، لتسجيل الكفر عليهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا، مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيّن كونه سحراً.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ ﴾ هلاَّ أُنزل عليه ملك، يكلمنا أنه نبيٌّ كقوله تعالى: ﴿لولا أُنْزِلَ إليه ملكٌ فيكونَ معهُ نَذيراً﴾[1] ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي ولو أنزلنا عليهم ملكاً على صورته الحقيقية، فشاهدوه بأعينهم، لتمَّ أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له، لمزيد هول المنظر، وقد قيل: إن جميع الأنبياء وهم هم إنما رأوا المَلك في صورة البشر، ولم يره أحد منهم على صورته غير النبي ﷺ كما صحَّ من رواية الترمذي عن

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

عائشة: «أن النبي ﷺ رأى جبريل مرتين، على صورته الأصلية»[1] ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يُمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الضمير الأول للنذير، والضمير الثاني للمَلك، والمعنى: لو جعلنا النذير الذي اقترحوه مَلَكاً، لمثّلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعة البشر لمعاينة الملك على هيكله وفي إيثار رجلاً على «بشراً» إيذانٌ بأن الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وفيه إشعار بأن الرسول لا يكون امرأة، وهو متفق عليه ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ اللَّبْسُ: الخلطُ، لبس عليه الأمر خَلطه ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ بأن يقولوا له: إنما أنت بشر، ولستَ بِمَلَك، فيلتبس الأمر عليهم ويختلط، وفيه تأكيدٌ لاستحالة جعل النذير مَلَكاً!!

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، أي وبالله لقد استهزىء برسلٍ أولي شأن خطير، ذوي عدد كثير، كائنين من قبلك، ولستَ أول رسول استهزأ به قومه ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا متضمن أن من استهزأ بالرسل عوقب، فكأنه سبحانه وعده بعقوبة من استهزأ به، و«حَاقَ» بمعنى أحاط، ولا يكاد يُستعمل إلاَّ في الشر، أي فأصابهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أُهلكوا لأجله، أو نزل بهم وبال استهزائهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية، وما فُعل بهم، أمر الله رسوله بإنذار قومه، تحذيراً لهم عما هم عليه، وتكملةً للتسلية، بما ضمنه من العِدَةِ اللطيفة، بأنه سيحيق بهم، مثل ما حاق

---

(١) رواه الترمذي في التفسير ٣٦٨/٥ من حيث عائشة، ولفظُه «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلاَّ مرتين: مرَّةً عند سدرةِ المنتهى، ومرَّةً في جياد، له ستمائة جناح، قد سدَّ الأُفُق».

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

بأضرابهم الأولين، أي سيروا في الأرض لتعرُّف أحوال أولئك الأمم ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تفكَّروا في أنهم كيف أُهلكوا بعذاب الاستئصال، والعاقبةُ: هي منتهى الأمر ومآله، ووضع المكذبين موضع المستهزئين، لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم، هو التكذيب لا الاستهزاء فقط، ولمَّا بيَّن الله تعالى في الآيات السابقة، أصول الدين، وشبهات الكفار على الرسالة، وما يدحضها، قفَّى سبحانه على ذلك، بتلقينه أسلوباً آخر، وهو أسلوب السؤال والجواب.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

فقال: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾؟ أي قل يا رسول الله على سبيل التقريع: ﴿لِمَن مَا في السَمٰواتِ والأرضِ﴾؟ أي لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلْكاً وتصرفاً؟ فإن أجابوك وإلاَّ ﴿قُل لِّلَّهِ ۚ﴾ تقرير الجواب نيابة عنهم، بأن الكل له سبحانه، وفيه إشارة إلى أن الجواب، قد بلغ من الظهور، إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، كما نطق به تعالى في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة للجميع، لبيان أنه تعالى رؤوف

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.

بعباده، لا يعجّل عليهم بالعقوبة، ومعنى كتب الرحمة إيجابها بطريق التفضل والإحسان، ومن رحمته أنه تعالى خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لاجتناب مقتضيات سخطه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله ليجمعنكم مبعوثين إلى يوم القيامة، وهذا من مقتضيات تلك الرحمة، لأن الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمة بالمكلفين، والعلم به رحمة أيضاً، لأنه لولا خوف الحساب والعذاب، لحصل الهرجُ والمرجُ، ولحصل الظلمُ، فصار الإيمان بيوم القيامة، من أعظم أسباب الرحمة، والخطاب للكافرين، وقيل عام، أي ليجمعنكم أيها الناس إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، لوضوح أدلته ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة، والعقل السليم، واستماع الوحي ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عدم إيمانهم بسبب خسرانهم، فإن إبطال العقل، والانهماك في التقليد، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والجملةُ لتقبيح حالهم، غير داخلة تحت الأمر.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ احتجاج ثانٍ على المشركين، أي له جلَّ وعلا ما ثبت واستقر في الليل والنهار، الجميعُ عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه، فهو الخالق، وهو المالك لجميع الكائنات والأشياء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ مبالغ في كل مسموع ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مبالغ في العلم بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء من الأفعال والأقوال.

﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي قل لهؤلاء المشركين: أغيرَ الله أتخذ معبوداً؟ قيل: إن المشركين من أهل مكة، قالوا له ﷺ: يا محمد، تركتَ ملة قومك وقد علمنا أنه لم يحملك على ذلك إلا الفقر، فارجع فإنا نجمع لك من أموالنا، حتى تكون من أغنيائنا، فنزلت الآية ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما على غير مثالٍ سابق، أي هو المخترع والموجد لهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرْزق،

فالمراد من الطعام: الرزقُ بمعناه اللغوي، وهو كل ما يُنتفع به ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين، وينبغي لكل امر، أن يكون هو العامل أولاً بما أَمَرَ به، ليكون أدعى للامتثال ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ولا تكوننَّ في أمر من أمور الدين من المشركين.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بمخالفة أمره ونهيه أيَّ عصيانٍ كان، وفيه بيان لكمال اجتنابه ﷺ عن المعاصي على الإطلاق ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة، وفيه تعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، وعِظَم اليوم لعِظَم ما يقع فيه، وليس في الآية دلالةٌ على أنه ﷺ يخاف على نفسه الكفر والمعصية، لأن الشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ إن كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنا أوَّلُ العابدينَ﴾[1].

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي الرحمة العظمى وهي النجاة، وقيل: المرادُ فقد أدخله الجنة، فَذُكِر الملزومُ وأُريد اللازمُ، لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوز المبين: هو بدخول الجنة لقوله تعالى: ﴿فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ والفوزُ: الظفرُ بالبُغْية، ونيلُ المطلوب.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٨١.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أي ببلية كمرض، وفقر، ونحو ذلك، والخطابُ للرسول ﷺ وحكمه عام ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه سبحانه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من صحة وغنى وغير ذلك ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيمسكه ويحفظه عليك، من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[1] ومن دقائق بلاغة القرآن المقابلة بين الضر والخير، والنكتةُ فيه أن الضر من الله تعالى ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار، ثم ذكر الخير في مقابلة الضُرِّ، فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم، إنما يحسن إذا كان خيراً لهم، وقدم الضر إيذاناً على أن المضرة يعقبها الخير والسلامة[2]، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ إني أعلمك كلماتٍ: احفظِ الله تعالى يحفظكْ، احفظِ الله تعالى تجدْه أمامك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلمْ أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعُوك بشيء، لم ينفعوك إلاّ بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلامُ، وجفَّتِ الصُّحُفُ»[3].

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ تصويرٌ لقهره تعالى، وعُلوِّه بالغلبة والقدرة، والقاهر والقهار الذي يدبّر ما يريد، فلا يستطيع أحد ردَّ تدبيره، وظاهر الآية يقتضي القول بالجهة، والله تعالى منزه عنها، لأنها محدثة بإحداث العالم، ومذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى، كما نص عليه الإمام الطحاوي، واستدلوا بما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي

---

(١) سورة يونس، آية: ١٠٧.

(٢) إنما قدم الضر على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٦٠ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم ٢٦٦٩.

استشفع بالله تعالى عليه: «ويحك، أتدري ما الله تعالى؟ إن الله تعالى فوق عرشه، وعرشُه فوق سماواته» وبالجملة يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وتفويض علم ما جاء من المتشابهات إليه عز وجل، والإيمان بها، والله تعالى أعلم ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ذو الحكمة البالغة، وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي العالم بما دقَّ من أفعال العباد.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟ روى الكلبي أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنْ ليس لك عندهم ذكرٌ، فأتنا بمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزلت ومعنى ﴿أكبرُ شَهٰدةً﴾ أعظم وأصدق أي قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين: أيُّ شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك، وإلاَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي الله أكبر شهادة، شهيد بيني وبينكم أني رسولُه ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ﴾ من قِبَله تعالى ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ العظيم الشاهد برسالتي ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ بما فيه من الوعيد والاقتصار على الإنذار، لما أن الكلام مع الكفار ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الثقلين، إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن الكريم تعمُّ الموجودين، وقت نزوله ومن بعدهم، روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكأنما شافهتُه»[1] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ تقريرٌ لهم مع إنكار واستبعاد لدعواهم ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بذلك وإن شهدتم به، فإنه باطل صرْف ﴿قُلْ﴾ تكرار الأمر للتأكيد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي بل أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام، قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداءً، أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال «من بَلَغَه القرانُ فكأنما رأى النبيَّ ﷺ وكلَّمه» وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٠.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا جواب عما سبق من قولهم: سألنا اليهود والنصارى ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي يعرفون رسول الله، بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بصفاتهم ونعوتهم، بحيث لا يشكُّون في ذلك أصلاً ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين، بأن ضيّعوا الفطرة السليمة، وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: فكيف هذه المعرفة؟ قال: لأنا بمحمد أشدُّ معرفةً مني بابني، لأني لا أدري ما أحدثت أمُّه، فقال عمر: قد وفّقت وصدقتَ[1].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بادعائه أن له سبحانه شريكاً، وبقوله الملائكة بنات الله، وأمثال ذلك، الاستفهام إنكار لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساوياً له ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزلة كالقرآن المجيد والمعجزات التي سموها سحراً، وكلمة «أو» للإيذان بأن كلاً من الافتراء، والتكذيب وحده، بالغٌ غاية الإفراط في الظلم، كيف وقد جمعوا بينهما؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن الخطير هذا، وهو ﴿ لَا يُفْلِحُ﴾ أي لا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من مكروه ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من حيث إنهم ظالمون، وإذا كان حال الظالمين هذا، فما ظنك فيمن هو في غاية الظلم والفجور؟.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي ويوم نحشر الكفار وآلهتهم جميعاً، على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ بالله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه؟ وإضافتها إليهم، لما أنَّ شركتها ليست إلا بتسميتهم، وتقوُّلهم الكذب، كما ينبىءُ عنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعمونها شركاء، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علَّقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيّب عنهم.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنةُ: اختلف في المراد منها هنا: فقيل: الشركُ واختاره الزجاج[1]، وهو مروي عن ابن عباس وقيل: معذرتهم، وقيل: جوابهم، وإنما سماه فتنة، لأنه كذب قصدوا به الخلاص ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا ﴾ أي لم يكن كفرهم الذي لزموه مدة أعمارهم، إلاَّ جحوده والتبرؤ منه، بأن يقولوا ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع، من فرط الحيرة والدهشة، كما يقولون ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ وقد أيقنوا بالخلود.

﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ تعجيب من كذبهم، بإنكار صدور الشرك عنهم في الدنيا، أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم؟ فإنه أمر عجيب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ المراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها، أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي فريق منهم يستمعون إليك، ومفعوله مقدَّر وهو القرآن، قال ابن عباس: إن أبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر:

---

(١) قال الزجاج: مثالُ الآية أن ترى إنساناً يحبُّ غاوياً، فإذا وقع في مهلكةٍ، تبرَّأ منه، فيقال له: ما كان حبك لفلان إلاَّ أن تبرأت منه!؟.

ما يقول محمد؟ قال: ما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما كنتُ أحدثكم به، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنَّة جمع كِنَان، وهو ما يُسْتَر به الشيءُ، والكِنان: الغطاءُ وزناً ومعنى أي يستمعون إليك، وقد ألقينا على قلوبهم أغطيةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه، وهذا تمثيلٌ معرِبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي ﷺ، وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ أي يشاهدوا ويبصروا كل معجزة، دالة على صدق الرسول ﷺ، كانشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه الشريفة، وتكثير القليل من الطعام، ونحو ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لفرط عنادهم، والمراد ذمهم بعدم الانتفاع بحاسة البصر، بعد أن ذكر سبحانه عدم انتفاعهم، بعقولهم وأسماعهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ يعني إنهم إذا جاؤوك إنما جاؤوا ليخاصموك ويجادلوك، و «حتى» هي التي يقال لها: حتَّى الابتدائية ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ إنما وضع الموصول ذماً لهم، وإشعاراً بعلة الحكم، أي بلغوا من التكذيب إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين لك لا يكتفون بعدم الإيمان، بل يقولون ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير[1] جمع أسطورة، ومعناها الخُرافة، وعَدُّ أحسنِ الحديث وأصدقه، من قبيل الخرافات، رتبةٌ من الكفر، لا غاية وراءها.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير عنه للقرآن، أي وهم لا يقنعون بما ذُكر، بل ينهون الناس عن استماعه، لئلا يقفوا على حقيقته، فيؤمنوا به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهاراً لغاية نفورهم عنه، ويحتمل أن يكون الضمير للرسول، على معنى ينهون الناس عن الإيمان به ﷺ، ويتباعدون عنه، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رواه ابن جرير وغيره،

---

(١) قال في القاموس: الأساطيرُ: الأحاديث التي لا نظام لها، وأرادوا ما هذا إلا كقصص وأخبار الأولين التي سطَّروها، وليس كلام الله تعالى!!.

ولا يخفى ما في «ينهون» و «ينأون» من التجنيس البديع[1] ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لأشد العذاب، وهو عذاب الضلال والإضلال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم غير شاعرين بهلاك أنفسهم، على أن مقصدهم ليس منع الناس عن استماع القرآن، بل إغراقهم في الطغيان، فقد كانوا يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونفيُ الشعور أبلغُ من نفي العلم، كأنه قيل وما يدركون ذلك أصلاً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب إمَّا لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وجواب «لو» محذوفٌ إيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله أي لو تراهم حين يوقفونَ على النار لرأيت ما لا يسعه التعبير، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَقَالُوا۟﴾ لعظم أمر ما تحققوه ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا، تمنياً للرجوع والخلاص ولكن هيهات ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي بآيات الله الناطقة بصدق الرسل، والمخبرة عن أحوال النار وأهوالها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل.

---

(١) الجناس فَنٌّ من فنون علم البديع، يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، فقد اتفقت الحروف بين «ينهون» و «ينأون» إلاَّ في حرف واحد، ويُسمى هذا بالجناس الناقص، وهناك الجناس التام كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ يراد بالساعة الأولى القيامة، وبالثانية المدة من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ، واختلفا في المعنى.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ إضرابٌ عما ينبىء عنه التمني، أي ليس ذلك ناشئاً عن رغبة في الإيمان، بل ظهر لهم في موقفهم ما كانوا يخفونه في الدنيا، والمراد بها النار التي وقفوا عليها ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه ﴿ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ من فنون القبائح، ونسوا ما عاينوه من أنواع العذاب، لخبث طينتهم، وسوء استعدادهم، ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لأن ديدنهم الكذب، في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أي ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الوقوفُ هنا مجازٌ عن الحبس، للتوبيخ والتأنيب، أي لو رأيت حالهم لأشفقت عليهم ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ مشيراً إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي حقاً لا باطلاً كما زعمتم، والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أكَّدوا إقرارهم باليمين، إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته، ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ الذي عاينتموه ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ في الدنيا، ولعل هذا التوبيخ إنما يقع بعدما وُقفوا على النار، إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ أي البعث وما يتبعه من الحساب والجزاء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم، فإنه أبدي لا

حدَّ له، والساعة: القيامة، أُطلق على القيامة، إمَّا لوقوعها بغتة، أو لأنها تقوم في آخر ساعة الدنيا ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿قَالُواْ﴾ جواب إذا ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ تعالي فهذا أوانك، والحسرةُ أشدُّ الندم، والتلهف على الشيء الفائت، والحسرة لا تُطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك، كأنهم ذهلوا فنادَوْها، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه، ولا يخفى حسنه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفريطنا وتقصيرنا في اكتساب الأعمال الصالحة، في الحياة الدنيا، والتفريطُ: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، فرَّط في الأمر تفريطاً قصَّر فيه وضيَّعه ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ الوزرُ في الأصل: الحملُ الثقيلُ، سُمّي به الإثمُ لثقله على صاحبه، وذكرُ الظهور لأن المعتادَ حملُ الأثقال على الظهور، والغرضُ أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات، والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئاً صنعوه وارتكبوه، أوْرَدَهم نار الجحيم.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لمَّا حقَّق أن وراء الحياة الدنيا حياةً أخرى، يلقون فيها ما يلقون، بيَّن هنا حال تلك الحياتين في أنفسهما فقال: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهوٌ﴾ واللهو: صرفُ النفس عن الجدِّ إلى الهزل، لَهَا بالشيء يلهو لَعِب به، والمعنى: وما أعمال الدنيا إلا لعب ولهو، تشغل الناس بما فيها من منفعة سريعة الزوال، عما فيه منفعة جليلة باقية، من الإيمان والعمل الصالح، والكلامُ من «التشبيه البليغ» جعلت الدنيا نفسها لعباً ولهواً مبالغة، كما في قول الشاعر: «وإنما هي إقبالٌ وإدبارُ» أي ليست الدنيا إلا كلعب الأطفال، يتلهى بها الصبيان، وعما قريب تزول ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي الآخرة والاستعداد لها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يخشون الله ويخافون عقابه، لأن منافع الآخرة خالصة عن المضار، ولذاتها غير منغصة بالآلام، مستمرة على الدوام، خَصَّ المتقين لأنهم الأصل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان؟

والفاء للعطف على محذوف أي ألا تتفكرون فلا تعقلون؟ والاستفهام للتنبيه والحث على التأمل.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ الآية مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، عن الحزن الذي كان يعتريه، من إصرار المشركين على التكذيب ببيان أنه ﷺ بمكانةٍ من الله تعالى، وكلمة «قد» لتأكيد العلم، وقد كانوا يقولون: إنه شاعر، وكاهن، ومجنون[1]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنَّا لا نكذِّبك، ولكن نكذِّبُ بما جئتَ به، فأنزل الله هذه الآية[2] ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ على الحقيقة لعلمهم بصدقك، وفيها بيان لبلوغه ﷺ في جلالة القدر، غايةً ليس وراءها غاية، حيث نفى

---

(١) وقيل معنى الآية: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، روي ذلك عن قتادة وغيره، ويؤيده ما رواه السُّديّ أنه التقى الأخنس بن شُريق، وأبو جهلٍ فقال الأخنسُ لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ﷺ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٤٤ باب تفسير سورة الأنعام.

تكذيبهم له ﷺ وأثبته لآياته، على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[1] إيذاناً بكمال القرب، واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن الله عز وجل، وفيه أيضاً استعظامُ جنايتهم، كأنه قيل لا تعتدَّ به وكله إلى الله تعالى، فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذّبونك في الحقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي ولكنهم يجحدون آيات الله ويكذبونها، لتمرنهم على الظلم، وإيرادُ الجحود في موضع التكذيب، للإيذان بأن آيات الله تعالى من الوضوح، بحيث يشاهد صدقها كل أحد، وأن من ينكرها إنما ينكرها بطريق الجحود، الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه، كما في قوله تعالى: ﴿وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمَاً وعُلُوّاً﴾[2].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تفنن في تسليته ﷺ فإن عموم البليَّة، يهوّن أمرها بعض تهوين، وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، أي وبالله لقد كُذّبت من قبل تكذيبك رسلٌ أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير، ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ فتأسَّ بهم، واصطبر على ما نالك من قومك، فأنت أولى بالصبر لأنك مبعوث إلى العالمين، فاصبر كما صبروا، وفيه تأكيد للتسلية ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه إيذان بأن نصره تعالى لهم أمر مقرَّر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المراد بكلماته تعالى ما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ. إِنَّـهُمْ لَهُم المَنْصُورُونَ﴾[3] أي لا مغيِّر لوعد الله الذي وعد به رسله، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل، للإشعار بعلة الحكم، فإن من موجبات الألوهية أن لا يغالبه أحد، ولا يقع منه خلف ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جملة قسمية لتحقيق ما منحوا من النصر، أي ولقد جاءك يا محمد من خبر

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢.

الرسل، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، فالمراد بنبئهم نصره تعالى للرسل، وجميع ما جرى بينهم وبين أممهم.

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي إن عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين، يُروى أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في محضر من قريش، فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله تعالى ونحن نصدِّقك، فأبى الله أن يأتيهم بآية مما اقترحوا، فأعرضوا عنه ﷺ فشقَّ ذلك عليه لما أنه كان شديد الحرص على إيمان قومه، وكان يودُّ أن ينزلها الله تعالى طمعاً في إيمانهم، فنزلت الآية، يقال كَبُرَ على فلانٍ الأمرُ، أي: شقَّ عليه المعنى: إن شقَّ عليك إعراضهم عن الإيمان، وأحببتَ أن تجيبهم إلى ما سألوه ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ أي فإن قدرت ﴿ أَن تَبْتَغِىَ ﴾ أي تطلب ﴿ نَفَقًا ﴾ أي سَرَباً ومنفذاً، والنَّفَقُ بفتحتين سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلى مكان ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي مِرْقاةً ومصعداً ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ مما اقترحوه من الآيات فافعل، أي لا تستطيع أيها الرسول الإتيان بشيءٍ من تلك الآيات، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك، لعلمه بأنه لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم، والمقصود من هذا أن يقطع الرسول ﷺ طمعه من إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على الهدى والرشاد لفعله، بأن يوفقهم للإيمان، ولكنْ لم يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ أي الجاهلين بدقائق شؤون الله تعالى، الذين لا يعرفون حكمة الله، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين﴾ لا يدل أنه ﷺ أطاعهم، على أن الجهل هنا ضد العلم، لا ضد الإيمان، وكلُّ جهل بهذا المعنى ليس عيباً، لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يُذم الإنسان بجهل ما يجب عليه معرفتُه.

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان،

الذين يسمعون ما يُلقى إليهم سماع تفهم وتدبر، دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ والمراد من السماع هو سماع الفهم والتدبر، وما عداه كلا سماع ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكفار[1] كما قال الحسن ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيجازيهم على كفرهم، فحينئذ يسمعون.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۖ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي رؤساء قريش الذين بلغ بهم الضلال، إلى حيث لم يقنعوا بما شاهدوه من الآيات، التي تخرُّ لها صُمُّ الجبال ولم يعتدوا به ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي هلاَّ نزل على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ملجئة للإيمان ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من الآيات الملجئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما أن في تنزيلها إبطالاً لأساس التكليف، المبني على قاعدة الاختيار، ولأنها إذا نزلت فلم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، فيقترحونها جهلاً، ويتخذونها ذريعةً إلى التكذيب، وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أنَّ بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون، مكابرةً وعناداً.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنف، مسوقٌ لبيان كمال قدرته عز

---

(١) شبَّه تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون، وكأنهم خشب مسنَّدة، قال قتادة: الآية مثلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله فينتفع به ويعقله، والكافر أصمُّ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به «تفسير الطبري».

وجل، ليكون كالدليل على أنه تعالى، قادرٌ على تنزيل الآية، وإنما لا يُنزلها رحمةً بالعباد، أي ما من شيءٍ يدب على وجه الأرض من صغير ولا كبير ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيَّد بالجناحين، لنفي المجاز، لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار، إذا أسرع ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ أي طوائف مخلوقة ﴿أَمْثَالُكُم﴾ كل أمة منها مثلكم، أحوالها محفوظة، ومصالحها مرعية ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم، من جليل ودقيق، لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، وفيه بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي، أي ما أغفلنا وما تركنا في الكتاب من شيء من الأشياء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجمَّاء من القرناء[1] أي ثم مرجعهم ومآلهم إلى ربهم فيجازيهم على أعمالهم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالقرآن، وسائر الحجج العقلية، والشرعية ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ هذا من التشبيه البليغ، أي إنهم كالصمّ، وكالبكم، لا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر منه نفوسهم، ولا يقدرون أن ينطقوا بالحق، ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في ظلمة الكفر، وفي ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، والمراد أنهم غارقون في الجهل وسوء الحال، فإن الأصم الأبكم، إذا كان بصيراً، ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، فينسدُّ عليه باب الفهم بالكلية، ولذا شبّهوا بالموتى ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي أمره إلى ربه،

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

(٢) قال الطبري: فالرب الذي لم يضيّع حفظ أعمال البهائم، والدواب، والطير، حتى حفظ عليها حركاتها، وأفعالها، وأثبت ذلك في أم الكتاب ـ اللوح المحفوظ ـ وحَشَرها ثم جازاها على ما سَلَف منها في دار البلاء، كيف يضيِّع أعمالكم، ويفرّط في حفظها، ويترك جزاءكم في الآخرة؟ مع ما خصكم من العقل والفهم الذي لم يعطه الطير والبهائم؟.

فمن يشأ الله إضلاله، يخلق فيه الضلال، لا بطريق الجبر، لا بطريق الكسب والاختيار منه ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه، والآية دليل لأهل السنة على أن الإيمان والكفر بإرادته سبحانه ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هذا قولٌ أمر الله رسوله أن يوجّهه إلى الكفار، مذكراً إياهم بما أودع في فطرتهم، من توحيده عزَّ وجل، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض يفسد فطرتهم وعقولهم، قال الفراء: للعرب في (أرأيت) لغتان: إحداهما رؤية العين، فإذا قلت للرجل أرأيتك، كان المراد هل رأيت نفسك، ثم يثنّى ويُجمع، والثاني أن تقول: أرأيتَك وتريد أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل حال، تقول: أرأيتَكَ أرأيتَكُما أرأيتَكُم أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ حسبما أتى الأمم السابقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي لا محيص عنها البتة ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هذا مناط الاستخبار ومحطّ التبكيت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم من الصادقين أخبروني من تدعون؟ والمراد إقامة الحجة عليهم، أنهم يفزعون إلى الله وقت الشدة، لينجيهم من عظيم البلاء، ولهذا قال بعده.

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ أي بل تخصونه تعالى بالدعاء، وتقديمُ المفعول لإفادة التخصيص ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي فيفرّج عنكم عظيم البلاء ﴿ إِن شَآءَ ﴾ أن يتفضل عليكم، يعني أن قبول دعائهم تابعٌ لمشيئة الله المبنية على حِكَم خفية، قد يقبل وقد لا يقبل ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما رُكّز في العقول، من أنه تعالى القادر على كشف الضر، دون غيره من الخلق، والنسيانُ مجاز عن الترك، كما روي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون على حقيقته، فإنهم لشدة الهول ينسون ذلك حقيقة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسلاً كثيرين بعثناهم ﴿ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ قبل زمانك يا محمد فكذّبوا رسلهم ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي فامتحنّاهم بأنواع الشدائد، بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش، والضراء وهي الأمراض والأسقام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها، بالتضرع والتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم.

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ أي هلاَّ تضرَّعوا بالتوبة حين جاءهم العذاب ليصرف الله عنهم البلاء؟ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع وجود المقتضي، وانتفاء المانع، و«لَوْلا» هنا ليست تحضيضية لأنها تختص بالمضارع، ولما كان التضرع من لين القلب، أخبر عن قساوة قلوبهم فقال: ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فكأنه قيل: فما لانت قلوبهم، ولكن قستْ، أي استمرت على ما هي عليه من القساوة، وازدادت عناداً وفجوراً ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بيان للصارف لهم عن التضرع، وأنه لا مانع عندهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي تركوا ما دعاهم الرسل إليه، وانهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من السَّعة، والصحة، وصنوف النعمة، على منهاج

الاستدراج، إلزاماً للحق، وإزاحة للعلة، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، فقد روي من حديث عُقبة بن عامر مرفوعاً: «إذا رأيتَ الله تعالى يُعطِي العبدَ في الدنيا، وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية»[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ بطروا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من النّعم، يعني حتى إذا اطمأنوا بما أُتيح لهم، وبَطِروا وأَشِروا ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ بعذاب الاستئصال فجأة، ليكون أشد عليهم وقعاً ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون غاية الحسرة، آيسون من كل خير، والإبلاس: الانكسار والحزنُ، يقال أبلس فلان: إذا سكت غماً، وقيل: للإبلاس ثلاثة معان في اللغة: الحزنُ، والحسرةُ، واليأس، وهي معان متقاربة.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد، قال الأصمعي: الدابر الأصلُ، ومنه قطع الله دابره أي أصله، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب، ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ للإشعار بعلة الحكم، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم، لأنهم وضعوا الكفر موضع الشكر، والمعاصي مقام الطاعات ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة، تخليص لأهل الأرض من أعمالهم الخبيثة، نعمة جليلة، مستوجبةٌ للحمد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي ورواه أحمد في المسند ٤/ ١٤٥.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت عليهم، وهذا أيضاً استخبار أي قل أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بأن أصمَّكم، وأعماكم بالكلية ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن غطى عليها، بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم، فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضُراً ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾؟ من استفهامية أي أخبروني إن سلب الله مشاعركم، من إله غيره تعالى يأتيكم بها؟ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ، من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي انظر كيف نكرّرها، تارةً من جهة المقدمات العقلية، وتارةً من جهة الترهيب والترغيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُعرضون عن ذلك، و«ثم» لاستبعاد الإعراض، بعد تصريف الآيات، يقال: صدف عنه: أي أعرض، وأصدفه عن كذا أماله عنه، فالجملة داخلة في التعجيب، أي إنهم بعد ذلك التصريف، الموجب للإقبال والإيمان، يُدْبِرُون ويكفرون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي العاجل الخاص بكم، كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة بأن لم تظهر أماراته ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معاينة بعد ظهور أماراته، وتقديم البغتة لكونه أهول ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي إلاَّ أنتم، وضع الظاهر موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم، والهلاك وإن عمَّ الأبرار والأشرار، يكون الهلاكُ يختص بالشريرين، لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول المضار الثواب، والأشرار يكونون خسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلى الأمم ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع منهم بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى منهم بالعذاب، ولم نرسلهم ليُقترح عليهم، ويُتلهى بهم ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به

﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يجب إصلاحه ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي فلا خوف عليهم فيما يُقدمون عليه، ولا هم يحزنون على ما خلّفوه في الدنيا.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي التي بلّغتها الرسل لهم، عند التبشير والإنذار ﴿ يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي يصيبهم العذاب الذي أُنذروه عاجلاً، أو آجلاً، جعل العذاب ماسّاً لهم، كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر، الذي هو الإصرار على التكذيب.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول للكفرة الذين يقترحون عليك ما يقترحون ﴿ لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي مقدوراته، مفردها خزينة أو خزانة، وهي في الأصل ما يُحفظ فيه الأشياء النفيسة، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك، لا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى، مفوّضة إليَّ، أتصرف فيها حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات، أو إنزال العذاب، أو قلب الجبال ذهباً، أو غير ذلك مما لا يليق بشأني ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ ما لم يُوح إليَّ حتى

تسألوني عن الساعة أو نحوها ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي من جنس الملائكة، أقدر على ما يقدرون عليه، حتى تكلّفوني مما لا يطيق به البشر، من الرقي في السماء ونحوه ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحَىٰ إليَّ من ربي. تبرأ ﷺ عن دعوى الألوهية، والمَلَكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ مَثَلٌ للضال والمهتدي، والمؤمن والكافر، والاستفهام إنكاري، والمراد هل يتساوى من يعلم الحقائق، ومن لا يعلمها؟ كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، وفيه التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾؟ أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق، فلا تتفكرون فيه؟ لتميّزوا بين ادعاء الحقّ والباطل؟.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أي أنذرْ وخوِّفْ يا رسول الله بالقرآن المؤمنين الصادقين، الذين يُرجى إيمانهم، لا الأموات الذين لا ينجع فيهم دواء الإنذار، إنما الذين يتوقع منهم الانتفاع ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هم المجوزون للحشر، المؤمنون بالحساب والجزاء، فإن الإنذار ينجع فيهم، دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ حال من ضمير يُحشروا، والمعنى: أنذر به الذين يخافون حشرهم، غير منصورين من جهة أنصارهم بزعمهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي لكي يتقوا الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ سبب نزول الآية ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منَّ الله تعالى عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتَّبعك، فأنزل الله هذه الآية[1] ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ أي

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد في المسند، وأخرجه مسلم بنحوه في فضائل الصحابة رقم ٢٥٠٤.

في الصباح والمساء، وأصلُ الغَدَاةِ البكرةُ، ومعنى العشيّ آخر النهار، والمراد بهما ههنا الدوام، كما يُقال: فعله مساءً وصباحاً، إذا داوم عليه، ولم يحصل منه ﷺ أنه طردهم، وقرَّب منه زعماء قريش، وإنما همَّ أن يجعل لأولئك المؤمنين وقتاً خاصاً، ولأشراف قريش وقتاً آخر، ليتألفهم، فيقودهم إلى الإيمان، فنزلت الآية توجهه إلى الطريق الأسلم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يدعون ربهم مخلصين فيه، قيَّد الدعاء بالإخلاص، تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما عليك شيء من حساب إشراكهم وأعمالهم الباطلة، ولا تؤخذ بذنوبهم وإجرامهم، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب الرسالة، النظر إلى ظواهر الأمور، وإجراء الأحكام على موجبها، وتفويض الباطن إلى اللطيف الخبير ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ ذكره للمبالغة أي: لا تؤاخذ بحسابهم، حتى يهمَّك إيمانهم، ولا هم ينفعونك حتى تجاملهم وتعطيهم ما يريدون ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمعنى: إن أولئك الفقراء يستحقون التقريب، فبطردهم تضع الشيء في غير موضعه، فتكون ظالماً بتعديك حدود الله، وهذا لبيان الأحكام، وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض، ابتلينا الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء، على أشراف قريش، بالسبق إلى الإيمان، وقد مضت سنة الله تعالى، بأن يسبق الفقراء، إلى إجابة دعوة الرسل الكرام، وإلى دعوة كل إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تَبَعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، لأنه يشقُّ عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم نوح، وهود، وصالح وغيرهم ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ اللام للعاقبة أي ليقول بعض الأغنياء، مشيرين إلى الفقراء، محقرين لهم، نظراً لما بينهما من التفاوت الدنيوي ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأن وفَّقهم لإصابة الحق، والفوز بما يسعدهم عنده سبحانه ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي من دوننا، ونحن الرؤساء وهم

الفقراء؟ وهو إنكار لأن يُخَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابةِ الحقِّ، والسَّبقِ إلى الخيرِ، كقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[1] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه، وبمن لا يقع منه فيخذله؟ والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك، والمعنى: أليس الله عالماً على أتم وجه، محيطاً علمه بالشاكرين لنعمه حتى يستبعدوا إنعامه!!.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ وُصفوا بالإيمان، كما وُصفوا بالإخلاص، تنبيهاً على إحرازهم لفضيلتي: العلم، والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقرَّب ولا يطرد، ويُعزَّ ولا يُذلَّ، ويُبشَّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة[2] ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ منه تعالى بتبشيرهم بالسلامةِ عن كل مكروه، وأن يبدأهم بالسلام ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها على ذاته المقدسة، بطريق التفضل والإحسان، بسعة رحمته تعالى، وفي التعرض لعنوان الربوبية، إظهار لغاية اللطف بهم ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي من عمل ذنباً، جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ عن ذلك ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد عمل المنكر والسوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي في توبته، بأن أتى بشروطها، من التدارك، والعزم على عدم العود أبداً[3] ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فشأنه سبحانه أنه مبالغ في المغفرة والرحمة له.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٢) قال القرطبي ٦/ ٤٣٥: نزلت هذه الآية في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام».

(٣) هذه قاعدة من قواعد الدين، أمر ﷺ بأن يبلّغها لأمته، الذين يقعون في بعض المنكرات جاهلين عاقبتها، بأن يتوبوا وينيبوا ويصلحوا عملهم، وألاَّ يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله فإنَّ ﴿رحمةَ الله قريبٌ من المحْسِنينَ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ دائماً ﴿ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أي القرآنية في صفة أهل الطاعة، وأهل الإجرام، المصرّين منهم والأوّابين ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ولتستوضح يا رسول الله سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يستحقه، ولذلك فصّلنا هذا التفصيل، ولم يذكر سبيل المؤمنين، لأن ذكر أحد القسمين، يدلُّ على الآخر.

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، قطعاً لأطماعهم الفارغة عن ركونك إليهم إني صُرفت ومُنعت بالأدلة الحقّانية، والآيات القرآنية ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ ﴾ أي عن عبادة الآلهة الذين ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ والمراد بهم الأصنام، إلاّ أنه عبَّر بصيغة العقلاء، جرياً على زعمهم ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ تكرير الأمر اعتناءً بشأن المأمور به، وفي هذا القول استجهالٌ لهم، وتنصيص على أنهم تابعون لأهواء باطلة، ليسوا على شيء من الدين ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت، ولن أكون في زمرة أهل الرشاد، ولهذا قال بعده ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ والمراد وما أنا في شيء من الهدى، حتى أعدَّ في عدادهم، إن أنا سايَرتكم على أهوائكم في عبادة غير الله.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تبيينٌ للحق الذي عليه ﷺ أي: أنا على بصيرة من شريعة الله عزَّ وجلَّ، والمراد بها الوحيُ والحججُ العقلية، والتنوين للتفخيم أي بينة جليلة الشأن ﴿مِّن رَّبِّي﴾ أي كائنة من جهته سبحانه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ الضمير للرب، أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره والمعنى: إني على بينة كائنة من ربي، وكذبتم بالله، بالأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، بقولهم بطريق الاستهزاء: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾؟ أي ليس ما تستعجلونه في حكمي وقدرتي، حتى أجيء به ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم في تأخير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخلٌ بما فيه بوجه من الوجوه ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة، فيما يحكم به ويُقدِّره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي خير الحاكمين بين عباده، يحكم بالعدل، ويفصل بين الحق والباطل، ولا يظلم أحداً.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي لأستريح منكم، ولكنَّ الأمر بيد الله عز وجل، قال ابن عباس: أي لو كان الأمر بيدي، لم أُمْهِلكم ساعة ولأهلكتكم. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بحالهم، بأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج، لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إليَّ، ولم يقض بتعجيل العذاب.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه مستعار من المفاتيح التي جمع مِفتح بالكسر، وهو المفتاح الذي تفتح به الخزائن والأبواب، والمقصود أنه سبحانه، هو العالم بالمغيبات جميعها كما هي ابتداء ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، والمعنى: إن ما تستعجلونه من العذاب، ليس مقدوراً لي حتى ألزمكم به، ولا معلوماً لديَّ لأخبركم وقت نزوله، بل هو مما يختص به عز وجل، قدرةً وعلماً، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم والمصالح. روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مفاتح الغيب

خمسٌ، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلاّ الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، وما تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تعلم نفسٌ بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر، إلا الله»[1] فإن قلت: لم عدَّ هذه الخمس، وكلُّ المغيبات لا يعلمها إلا الله؟ الجواب لأن شأنهم في الجاهلية الاهتمام بهذه الأشياء فخصّها بالذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه تكملة له وتنبيهٌ، على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، أي يعلم ما فيهما على اختلاف أجناسها، وكثرة أفرادها سواءً كانت في البر والبحر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والمكان الذي سقطت فيه ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي في بطون الأرض، وكنى بالظلمة عن البطن، لأنه لا يدرك ما فيه، كما لا يُدرك في الظلمة ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ قيل: الرطبُ الماء، واليابسُ البادية، أو ماينبت، وما لا ينبت[2] ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ في علمه تعالى مسجَّل في اللوح المحفوظ، الذي هو محل معلوماته سبحانه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرعد ٨/ ٣٧٥ فتح الباري.

(٢) قال في البحر المحيط: وانظر إلى حُسن ترتيب هذه المعلومات، حيث بدأ أولاً بأمر لا ندركه نحن بالحسّ وهو «مفاتح الغيب» ثم بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو «البر والبحر» ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض، فدلَّ ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات، لا يغيب عن علمه شيء، في الأرض ولا في السماء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه، استعير التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي يعلم ما كسبتم فيه، خصَّ الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على المعتاد ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يوقظكم في النهار، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي، وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَيَعلَمُ مَا جَرَحتُم﴾ بينهما، لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم، بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات، مع كونها موجبة لإهلاكهم، يفيض عليهم الحياة، ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ كأنه قيل: هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي، ثم يبعثكم في جنس النهار، مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معيَّنٌ لكل فرد، بحيث لا يكاد يتخطى أحد ما عُيِّن له طرفة عين، وهو أجل بقائه في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره أصلاً ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعكم ومصيركم بالموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام قيل: الحواس تقبض عند النوم، فأما الروح لا تقبض، إلا إذا انقضى الأجل، وكما يُرَدُّ الإحساس بعد الإيقاظ، فكذا الأنفس تحيا بعد موتها.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي المتصرف في أمورهم، يفعل بهم ما يشاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف، إذا علم أن أعماله تُكتب عليه، وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له عن المعاصي، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ والمقصود ضبط الأعمال، فمنهم من يقول: إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي، بأسرها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً

(١) سورة ق، آية: ١٨.

وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1]؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حتى للغاية تجعل ما بعدها غايةً لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظةً مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدةُ أحدكم، وجاءت أسبابُ الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ المفوضون لذلك وهم ملك الموت وأعوانه، وانتهى هناك حِفْظُ الحَفَظة قال الكلبي: إن ملك الموت هو الذي يلي ذلك، ثم يدفع الروح إن كانت مؤمنة إلى مَلَك الرحمة، وإن كانت كافرة إلى ملك العذاب، وقد جاء إسناد الفعل إلى ملك الموت فقط باعتبار أنه المباشر، وإلى الله تعالى باعتبار أنه سبحانه الآمر الحقيقي ﴿وَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ أي رُدَّ العباد بعد البعث ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ أي مالكهم وخالقهم ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وأن الكافرين لا مَوْلَىٰ لهم﴾ لأن المولى هناك يراد به الناصر ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره بوجه من الوجوه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق بنفسه في أسرع زمان، لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية، ولا يشغله حساب عن حساب، ثم إن كيفية الحساب مما لا تحيط بتفصيلها عقول البشر، وليس لنا إلاَّ الإيمان به، مع تفويض كيفية ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: من ينجيكم من شدائد البر والبحر الهائلة، التي تبطل الحواس، وتدهش العقول، والظلماتُ: كناية عن مخاوفهما وأهوالهما ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي إعلاناً وإسراراً كما روي عن ابن عباس والحسن، ويحتمل أن يُراد بهما باللسان، والقلب ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ أي تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة والورطة التي عبَّر عنها بالظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الراسخين في الشكر، المداومين عليه لأجل هذه النعمة، لأن الإنسان في هذه الحالة، ينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وتشهد الفطرة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولهذا أخلصوا وتضرعوا.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي غم يأخذ بالنفس كسائر الهموم والأكدار، والأمراض والأسقام ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك، ولا توفون بالعهد.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هذا تذكير بقدرته تعالى على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم، وإنذار بأن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، والتنوينُ للتفخيم أي عذاباً عظيماً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من جهة العلو كالصيحة، والحجارة، والريح ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالرجفة، والخسف، والإغراق ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أي يخلط أمركم عليكم بجعلهم مختلفي الأهواء ﴿شِيَعًا﴾ جمع شيعة أي يجعلكم فِرقاً متحزبين وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يقاتل بعضكم بعضاً، أخرج أحمد ومسلم عن ثوبان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني سألتُ ربي لأمتي، أن لا يهلكها بِسَنَةٍ عامة ـ أي بقحط أو جدب ـ فأعطانيها، وسألتُه أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»[1] الحديث. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ على

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه مسلم رقم ٢٨٨٩ أوله «إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ=

أنحاءٍ شتى من الطريق الحسي، والعقلي، بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي كي يعلموا جليّة الأمر، فيرجعوا عما هم عليه، من المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي وكذّب بهذا القرآن المجيد ﴿قَوْمُكَ﴾ أي المعاندون منهم لغاية عتوّهم وضلالهم ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي كذبوا به والحال أنه الكتاب المنزل بالحق ﴿قُل﴾ لهم منبهاً ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ لأمنعكم من التكذيب، وأجبركم على التصديق، إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ أي لكل شيء من الأنباء، التي من جملتها عذابكم ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي وقت استقرار ووقوع البتة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه ما يحلُّ بكم من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الخوض: الدخول فيها بالتكذيب، والاستهزاء، والطعن فيها، كما هو دأب قريش في أنديتهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم، والقيام عن مجلسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ﴾ أي كلام ﴿غَيْرِهِۦ﴾ أي غير آياتنا ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي فتجالسهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي بعد تذكر النهي، والخطاب

= مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ ملكَ أمتي سيبلغُ ما زُوي لي منها..» الحديث وأخرجه الترمذي رقم ٢١٧٧ وأبو داود رقم ٤٢٥٢ كلهم في باب الفتن.

للرسول ﷺ والمراد غيره من المؤمنين، لأن النسيان الذي منشؤه الوساوس الشيطانية محال على النبي ﷺ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي معهم، فوضع المظهر موضع المضمر نعياً عليهم، وأنهم بذلك الخوض ظالمون، واضعون التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم، راسخون في ذلك.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وما يلزم المتقين، من قبائح أعمالهم وأقوالهم ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي مما يحاسبون عليه من قبائحهم روي عن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزلت الآية السابقة، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت، وهم يخوضون فيه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ استدراك أي ولكن يذكِّرونهم ويمنعونهم، بما أمكن، ويظهرون لهم الكراهة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يجتنبون الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي دع هؤلاء المجرمين الذين ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلّفوه، وأُمروا بإقامة أحكامه، وهو دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا، أو اتخذوا ما يتدينون به، شيئاً من اللعب واللهو ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية، واطمأنوا بها، حتى زعموا أن لا حياة بعدها، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ ترك معاشرتهم ومخالطتهم، لا ترك الإنذار لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن من يصلح للتذكير، وقد جاء مصرحاً به في قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1]

(١) سورة ق، آية: ٤٥.

والقرآن يفسّر بعضه بعضاً ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي لئلا تبسل أي تُسلم للهلكة، والمعنى: وذكر الناس بالقرآن، لئلا تُبسل كل نفس بما كسبت، أي تُسلم وتُحبس وتُترك في العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس للنفس من غير الله تعالى ناصر ينصرها، أو قريب يتولى أمرها ولا شفيع يشفع لها، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[2] ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ تفدي تلك النفس ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل فداء مما في الأرض ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي ذلك الفداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً، المغترون بالحياة الدنيا، هم الذين أُهلكوا بما كسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء مغلي، تتقطع منه أمعاؤهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا، مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿بما كسبوا﴾ لأنه العمدة في أسباب العذاب، والأهمُّ في باب التحذير.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

(١) سورة المدثر، آية: ٣٨.

(٢) سورة غافر، آية: ١٨.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي أنعبد متجاوزين عبادة الله، الجامع لجميع صفات الألوهية، التي من جملتها القدرة على النفع والضر، ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه، ولا على ضرنا إذا تركناه، وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أي ونرد إلى الشرك، والتعبير عنه بالرد على الأعقاب، لزيادة قبحه، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك، حالة قد نُبذت وراء الظهر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ أي هدانا للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنردُّ رداً مثل ردِّ الذي استهوته الشياطين، والاستهواءُ: من هَوَىٰ في الأرض إذا ذهب فيها، أي كالذي تخطفته مردة الشياطين وأضلّته، فذهبت به في المفاوز والقفار، والكلام وارد على التمثيل، حيث شبَّه فيه من خلص من الشرك، ثم نكص على عقبيه، بحال من ذهبت به الشياطين في أغوار الأرض وأضلته، بعد ما كان على الجادة المستقيمة[1] ﴿ حَيْرَانَ ﴾ أي تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟ ﴿ لَهُۥٓ ﴾ أي للمستهوىٰ ﴿ أَصْحَٰبٌ ﴾ رفقة ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ أي إلى الطريق المستقيم ﴿ ٱئْتِنَا ﴾ أي يقولون ائتنا، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون، ثابتون على الطريق المستقيم، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله، لمن يدعو إلى عبادة الأصنام، ولمن يدعو إلى عبادة الله تعالى، كمثل رجل في رفقةٍ، ضلَّ به الشيطان عن الطريق المستقيم، وجعل أصحابه يدعونه إليهم، وجعل الشيطان يدعوه إليه، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب؟ ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذي هدانا إليه، وهو الإسلام ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي وحده وما عداه ضلال محض ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ

---

(١) هذا مثل ضربه الله عزَّ وجل لمن عبد غير الله، من وثنٍ وصنم، فهو في تخبطه وضلاله، كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته، وسارت به في المفاوز والمهالك، فألقته في هوَّة سحيقة، ولم يستجب لداعي الهدى والفلاح.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وأُمرنا بأن نستسلم لله عزَّ وجل، ونخلص العبادة له في جميع أمورنا وأحوالنا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ عطف على موضع لنسلم، كأنه قيل: أمرنا أن نسلم، وبأن نقيم الصلاة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإلى الله وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً، وعدم التصريح لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي قائماً بالحق، لا عبثاً وباطلاً، وإظهاراً للحق، لأن صنعه تعالى دليل على وحدانيته عزَّ وجلَّ، ونظيرُ الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1] ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ استئناف لبيان أن خلقه للأشياء، ليس مما يتوقف على مادة أو مدة، بل يتم بمحض الأمر، أي وقضاؤه سبحانه كائن، حين يقول لشيءٍ من الأشياء «كن» فيكون ذلك الشيء بدون تأخير ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي استقر الملك له في ذلك اليوم، صورة ومعنى، بانقطاع العلائق الكائنة في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ؟ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[2] والصورُ: قرنٌ ينفخ فيه، ويعرف الناسُ أمور الآخرة، بأمثال ما شاهدوا في الدنيا، ومن عادة الناس، النفخُ بالبوق، عند الأسفار، وهو تمثيلٌ لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش، إذا نفخ بالبوق، روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور يا رسول الله؟ قال: قرن يُنفخ فيه»[3] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي كل غيب وشهادة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية.

---

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

(٢) سورة غافر، آية: ١٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٢٦ وأبو داود رقم ٤٧٤٢ والترمذي رقم ٢٤٣٢ ورواه مسلم بلفظ «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ».

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي اذكر يا رسول الله لهؤلاء الكفار، وقت قول إبراهيم عليه السلام، الذي يدَّعون أنهم على ملته، موبخاً ﴿ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ على عبادة الأصنام، فإن ذلك ممَّا ينادي بفساد طريقتهم ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾؟ أي أتجعلها لنفسك آلهة؟ على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عظيم عن الحق ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي بيِّن في كونه ضلالاً، لا اشتباه فيه أصلاً، وحكمة كون بعض أقارب الرسل كافراً، هي تقرير أصل التوحيد، الهادم لقاعدة الوثنية، والرسل لا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً، ولو كان أقرب الناس إليهم، فكيف بغيرهم من البشر؟

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي مثل ذلك التبصير البديع، نُبَصِّر إبراهيم بملكنا الواسع ونعرِّفه به، وإنما عدل عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل، استحضاراً لصورتها، حتى كأنها حاضرة ومشاهدة ﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما، وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى، والملكوت معناه الملك العظيم، والتاء فيه للمبالغة وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ أي من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين، من معرفة الله

تعالى، واللام متعلقة بمحذوف أي فعلنا ما فعلنا وأريناه تلك الآيات الباهرة، ليكون من الراسخين في اليقين، لا يخالجه أدنى شك أو ارتياب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ جنَّ عليه: سَتره فمعنى: ﴿جنَّ عليه الليل﴾ ستره بظلامه، وهذه المادة بتصرفاتها تدل على الستر ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جواب لمَّا، والمراد بالكوكب فيما روي عن قتادة: أنه الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض، وإرخاء العَنان، مجاراة مع أبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قولٍ، يحكيه ثم يكرُّ عليه بالإبطال، وهذا هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ المتغيرين من حال إلى حال، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعاً، أفل الشيء أفولاً: غاب.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي مبتدأ في الطلوع، منتشر الضوء، قال الأزهري: مأخوذٌ من البزغ وهو الشق، كأنه بنوره يشق الظلمة، وظاهر الآية أن هذه الرؤية، بعد غروب الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وهو على منهاج الكلام السابق ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ كما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ إلى جنابه الحق الذي لا محيد عنه ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً، لتغيير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه آلهاً فهو ضال، والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله: ﴿لاَ أُحِبُّ الأفِلِينَ﴾ وفي هذه الجملة دليل على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه، بل محاجَّةً لقومه، ولما ذكر هذه القصة قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ولم يقل على نفسه.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما لم يؤنث لصيانة الرب عن وصمة التأنيث، ولأن الشمس تأنيثها غير حقيقي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ تأكيد لما رامه من إظهار النَّصَفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر، وكون الشمس أكبر مما قبلها

مما لا خفاء فيه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ كما أفل ما قبلها ﴿قَالَ﴾ لقومه صادعاً بالحق بين ظهرانيهم ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي من إشراككم، وإنما احتج عليه السلام بالأفول دون البزوغ، مع أنه أيضاً انتقال من حالة إلى حالة، لأنه انتقال مع احتجاب، وأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة، يعرفها كل أحد، ثم لمَّا تبرأ منها، توجَّه إلى موجدها، الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ﴾ أي أوجد وأنشأ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هذه الأجرام من أجزائها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ التي تلك الأصنام من أجزائها ﴿حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولستُ من المشركين.. تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه[1]، والمراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة وحده.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والحقُّ أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدهنَّ إضاءة الشمسُ، ثم القمر، ثم الكوكب «الزهرة» فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع تبرأ منهم فقال ﴿إني بريء مما تشركون﴾.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ أي شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد، تارة بإيراد أدلة فاسدة، وأخرى بالتخويف والتهديد ﴿ قَالَ ﴾ منكراً عليهم لما اجترؤوا عليه من محاجته بعد وضوح الحق ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾ في وحدانيته سبحانه ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾ في موضع الحال مؤكد للإنكار، أي وقد هداني ربي وبصَّرني بالحق بإقامة الدليل عليكم بوحدانيته، وقولُه تعالى: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ جواب عما خوَّفوه به، من إصابة مكروه من جهة أصنامهم، كما قال لهودٍ قومُه: ﴿إِنْ نقولُ إلاَّ اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوء﴾[1] وهذا التخويف كان على ترك عبادة الأصنام، وقيل: بل على الاستخفاف والاستهزاء بها ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾ أي لا أخاف في وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروهٍ بي، وذلك إنما هو من جهته تعالى، من غير دخلٍ لآلهتكم فيه أصلاً ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ ﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء، ومنها أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم بمعزل عن القدرة، على شيءٍ ما من النفع والضر، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري؟ وفي إيراد التذكر دون التفكر، إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز في العقول، لا يتوقف إلا على التذكير.

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي وكيف أخاف آلهتكم المزعومة، التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ أي ولا تخافون الله الجليل القادر، وهو حقيق بأن يخاف منه، لأنه إشراك بالمبدع الصانع، وتسويةٌ للضعيف العاجز بالقادر؟ أي كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات، وهو إشراككم بالله الذي فطر السموات والأرض؟ وعبَّر عنه بقوله سبحانه: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ ﴾ أي بإشراككم ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ﴾ على طريقة التهكم، مع

---

(١) سورة هود، آية: ٥٤.

الإيذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾؟ أي أيُّنا أحقُّ بالأمن؟ أنحن وقد عرفنا الله بالأدلة الساطعة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأوثان، وكفرتم بالواحد الديَّان؟ أينا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم، فأخبروني بذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أي لم يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك كما يفعله المشركون، حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله، وأن عبادتهم لغيره من تتمات إيمانهم، لكونها لأجل التقريب والشفاعة.. روي أن هذه الآية لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ أشفق منها أصحاب النبي فقالوا: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] فقد ظنوا أن المراد من الظلم المعاصي، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فبيَّن النبي ﷺ أن المراد من الظلم هنا: الشركُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر، من الإيمان الخالص عن شائبة الشرك، لهم الأمنُ فقط ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ومن عداهم في ضلال.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي أرشدناه إليها وعلمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي حجة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي رتباً عظيمة عالية، من العلم، والحكمة وما تستدعيه المصلحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه.

---

(١) الحديث في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ٨٢ ومسلم رقم ١٢٤ في الإيمان أيضاً، وفي رواية أخرى: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾!؟.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى طريق السعادة، لا أحدهما دون الآخر ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي من قبل إبراهيم، وعدَّ هداه نعمة، لأن شرف الوالد سارٍ إلى الولد ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام، لأن مساق النظم الكريم، لبيان شؤونه الجليلة، من إيتاء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وكل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته، من المشركين واليهود، بأن إبراهيم كان مؤمناً موحّداً، لا كما يدَّعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إنما بدأ بذكرهما، لأنهما جمعا بين النبوة والملك، وسليمان هو ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء إبراهيم ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاءً مثل ذلك الجزاء، والمراد بالمحسنين الجنس، ومطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان من غير بخسٍ، لا المماثلة من كل وجه.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿وَإِلْيَاسَ ۖ﴾ هو من أسباط هارون ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من

أولئك المذكورين ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والجملة اعتراض جيء به للثناء عليهم.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ولوط هو ابن أخ إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق، وقد ذكر الله تعالى أربعة عشر نبياً، لم يرتبهم على حسب تاريخهم، لأنه تعالى أنزل كتابه هدىً وموعظة، لا لسرد أخبار التاريخ.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ آدم، وشيث، ونوحُ، وهود، وصالح ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الجماعات الكثيرين، وإن لم يكونوا جميعاً أنبياء، فهم مؤمنون مهتدون. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ أي اصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى إلى الطريق المستقيم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم المستعدون لذلك، وتفيد الآية على أنه تعالى متفضلٌ بالهداية عليهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي أولئك المذكورون مع فضلهم وتقدمهم ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ لبطل وسقط عنهم مع علو شأنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال المرضية، فكيف بمن عداهم؟.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء، باعتبار اتصافهم بما ذُكر من الصفات الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي فصل الأمر بين الناس بالحق، أو الحكمة وهي معرفة حقائق الأشياء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إنما ذكر الأعم، لأن بعض من دخل في آبائهم وذرياتهم، ليسوا برسل ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار قريش، فإنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أُنزل عليه كافرون بجميع الرسل ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بمراعاتها، ووفقنا للإيمان بها، والقيام بحقوقها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات، بل مستمرون على الإيمان بها،

وفي الآية دليل على أنه عزَّ وجلَّ ينصر رسوله ﷺ، ويقوي دينه، وقد حقّق له ذلك.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين من الأنبياء ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ إلى الحق، والنهج المستقيم ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأُصول الدين والاقتداءُ المأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة، كالحلم، والصبر، والزهد، والشكر، والتضرع، ونحوها، وأنه ﷺ قد امتثل وأتى بجميع ذلك، فاجتمع فيه من خصال الكمال، ما كان متفرقاً فيهم، وفي أمره ﷺ بالاقتداء بهداهم، دون الاقتداء بهم، ما لا يخفى من الإشارة إلى علوّ مقامه!! ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ ﴾ أي لا أطلب منكم ﴿ عَلَيۡهِ ﴾ أي على التبليغ، أو القرآن، فإنَّ مساق الكلام يدل عليهما، وإن لم يَجْرِ ذكرهُما ﴿ أَجۡرًاۖ ﴾ أي جُعْلاً من جهتكم، كما لم يسأل من قَبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمر بالاقتداء بهداهم، لأن عدم أخذ الأجر في مقابلة الإحسان، من مكارم الأخلاق ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾ أي ما القرآن ﴿ إِلَّا ذِكۡرَىٰ ﴾ أي تذكيرٌ وعظة ﴿ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون قوم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الإنس والجن.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ لمَّا بيَّن شأن القرآن العظيم، وأنه نعمة جليلة على كافة الأمم، عقَّب ذلك ببيان كفرهم به، على وجهٍ سَرَىٰ ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلٰهية، والمعنى: ما عرفوا الله تعالى ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي حق معرفته، وعن ابن عباس معناه: ما عظموا الله تعالى حقَّ تعظيمه، وما قاله الأخفش أوفق بالمقام، أي ما عرفوه سبحانه، في اللطف بعباده، والرحمة عليهم، ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك، بل أخلُّوا إخلالاً عظيماً ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ منكرين لبعثة الرسول، وإنزال الكتب ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ شيئاً من الأشياء قال مجاهد: إنهم مشركو قريش، والجمهور على أنهم اليهود، ومرادُهم من ذلك المبالغة في إنكار إنزال القرآن الكريم، بدليل نقض كلامهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والتقريع على سوء جهلهم.

روى الطبراني عن سعيد بن جبير أنَّ مالك بن الصيف ـ من أحبار اليهود ـ قال ﷺ له: أنشدك الله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله تعالى يُبغض الحَبْر السمين؟ قال: نعم، قال ﷺ: فأنت الحبر السمين، فضحك القومُ، فغضب فقال: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيءٍ﴾ الآية، ثم إنَّ وصف الكتاب، بالوصول إليهم، لزيادة التقرير، وكذا تقييده بقوله سبحانه: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ فإنَّ كونه بيِّناً بنفسه، ومبيّناً لغيره، مما يؤكّد الإلزام ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي هدىً كائناً للناس، وليس المراد بهذا، مجرد الإلزام بالاعتراف فقط، بل بإنزال القرآن أيضاً، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم لإنزاله، لما فيها من الشواهد، وقد نعى عليهم ما فُعل بها من التحريف والتغيير، حيث قيل: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي تضعونه في قراطيس مقطَّعة، وورقات متفرقة، وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب، ونزّلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة، وليس المراد وضعهم له في قراطيس، إذ كل كتاب لا بدَّ أن يودع في القراطيس، بل المراد التوبيخ على الجعل في قراطيس موصوفة بقوله

سبحانه: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي كثيراً منها، والمراد من الكثير نعوت النبي ﷺ وسائر ما كتموه من الأحكام، كرجم الزاني المحصن، وهذا خطاب لليهود بلا مرية، وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم، إشعاراً بتعيين الجواب، بحيث لا محيد عنه، وإيذاناً بأنهم أُفحموا ولم يقدروا على التكلم ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ دعهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ولفظة ﴿الله﴾ جملة حُذِف أحد جزئيها، أي اللهُ أنزله.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ هذا تحقيقٌ لنزول القرآن على محمد ﷺ وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنيعة ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع، لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتب التي قبله، وتصديقه للكل، في إثبات التوحيد، ونفي الشرك، وأصول الشرائع التي لا تُنسخ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لإنذارك أهل مكة، سُمّيت بذلك لأنها قبلة أهل البلاد، ومَحَجُّهم، وأعظم القرى شأناً وهم يجتمعون عندها كاجتماع الأولاد عند الأم، ويعظمونها تعظيم الأم ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل المدر والوبر، في المشارق والمغارب، لعموم بعثته ﷺ لجميع الناس ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن الكريم، فإنَّ من صدَّق بالآخرة، خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر، حتى يؤمن بالنبيِ والكتاب، ويحافظ على الطاعة، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعَلَمُ الإيمان، وأما المنكرون للبعث والجزاء، فلا يشعرون بشدة الحاجة إلى هداية القرآن، ومشركو مكة أعرضوا عن القرآن لأنهم لا يعتقدون البعث ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها، بأركانها وشرائطها وآدابها، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها من العبادات.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم منه[1]، كالذين قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من جهته تعالى ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ كمسيلمة الكذاب، والأسود العَنْسي ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي أنا قادر على مثل ذلك، كالذين قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وقد دخل في حكم هذه الآية، كلُّ من افترى على الله كذباً، في ذلك الزمان وبعده، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي ولو ترى الظالمين إذْ هم ﴿ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي شدائده، من غَمَره إذا غشيه، والغمرةُ: الشدةُ، ومنه غمرات الموت، وتقييد الرؤية بهذا الوقت ليفيد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر، وجواب الشرط محذوفٌ، أي لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ وهم أعوان ملك الموت ﴿ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ لقبض أرواحهم، كالمتقاضي الملحِّ، يبسط يده إلى من عليه الحق، ويُعنِّف عليه في المطالبة، من غير إمهال، أو باسطو أيديهم بالعذاب، قائلين ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي أرواحكم من

---

(١) الاستفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أظلمُ منه على معنى: إنه أظلم من كل ظالم، وزيادة قوله: ﴿كذباً﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك، للإيذان بأن ما قالوه مع أنه افتراء هو كذب في نفسه، فقد جمعوا بين الكذب، وجريمة الافتراء على الله.

أجسادكم، أو خلّصوا أنفسكم من العذاب ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي وقت الإماتة أو الوقت الممتد إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب المتضمن للشدة والإهانة، وحاصل المعنى: ولو ترى أيها المخاطب ما يحلُّ بالظالمين عند الموت، وما بعده، لرأيت أمراً فظيعاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من ادعاء الوحي، ودعوى النبوة كذباً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها، ولا تؤمنون بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ أي منفردين عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وعنِ الأولاد والأموال ﴿كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي على الهيئة التي وُلدتم عليها، عُراةً، وحُفاة، كما روي عن عائشة أنها قرأت هذه الآية، قالت يا رسول الله واسوأتاه، النساء والرجال سيحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال ﷺ: «لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه»[1] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، من الأموال، والأولاد، والخدم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي في الدنيا، ولم تحملوا نقيراً وهذا يدل على أن ما يكتسبه الإنسان، ولم يصرفه في الخيرات، فصفته هذه التي ذكرها، أمَّا إذا صرفها إليها، فما تركها وراء ظهره، بل قدَّمها تلقاء وجهه، كما قال الله تعالى: ﴿وما تُقَدِّموا لأنفسكُمْ من خَيْرٍ تَجدُوهُ عندَ الله﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي شركاء الله في ربوبيَّته واستحقاق عبادتكم لها، تعالى الله عن ذلك، وبَّخ الله تعالى المشركين بذلك، ثم يقول الله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وقع التقطُّعُ بينكم، وأصله لقد تقطع ما بينكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاءكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه، ورواه الترمذي في التفسير ٥/٤٠٣ بلفظ: «تُحشرون حُفاة، عُراة، غُرْلاً - أي غير مختونين - فقالت امرأةٌ أيبصر أو يرى بعضُنا عورةَ بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لكلٍّ امرىءٍ منهمْ يومئذٍ شأنٌ يغنيه﴾» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾ شروعٌ في تقرير بعض بدائع الله تعالى، الدالة على كمال علمه وقدرته، إثر تقرير أدلة التوحيد، والفَلقُ: الشقُّ أي شَاقُّ الحبِّ بالنبات، والنوَى بالشجر، ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ أي مخرج ما ينمو من الحيوان والنبات، مما لا ينمو من النطفة والحبّ ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالنطفة والحبِّ ﴿ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ كالحيوان والنبات، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ولما كان الحي أشرف من الميِّت، وجب الاعتناء بإخراج الحي أكثر من الاعتناء بإخراج الميت، فلذا وقع التعبيرُ عن الأول بصيغة الفعل ﴿يُخْرِجُ﴾ وعن الثاني بصيغة الاسم ﴿وَمُخرِجُ﴾ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحيِّ أكثر وأكمل، من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المستحقُّ للعبادة وحده ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيءٍ أصلاً؟.

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ الإصباحُ في الأصل مصدر أصبح، إذا دخل في الصباح، سُمّي به الصبحُ والصباحُ مثله وهو أول النهار، فلقه عن بياض النهار، أي فالق ظلمة الإصباح بالإصباح، وذلك لأن الأفق مملوء من الظلمة، فشقَّ سبحانه ذلك بالنور الذي ظهر في الجانب الشرقي ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي يسكن إليه من يتعب بالنهار، ويستأنس به، لاستراحه فيه، وكلُّ ما يسكن إليه الرجل ويطمئن به، من زوجٍ أو حبيب يقال له: سكنٌ، والمعنى سكن فيه كل طير ودابة أي: جعل الليل مسكوناً فيه، أخذاً له من السكون ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ معطوفان على الليل أي مجعولان ﴿ حُسْبَانًا ﴾ على أدوار مختلفة، تُحسب بهما الأوقات التي نيطت بها العبادات، والمعاملاتُ، والحُسْبانُ بالضم مصدر حسبت، والمصدر حِسَابا

بالكسر، وحُسْباناً بالضم، أي أُحصيت عدداً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الغالب القاهر، الذي لا يتعاصاه شيءٌ من الأشياء، ومبالغ في العلم بجميع المعلومات، التي من جملتها المصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي أنشأ لأجلكم النجوم ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ أي جعلها كائنة لاهتدائكم في أسفاركم، عند دخولكم المفاوز أو البحار، إذا ضللتم وتحيَّرتم فيه، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليل، في البر والبحر، ذكر تعالى هنا بعض منافعها، وهو الاهتداء إلى البلدان في الأسفار، ومن منافعها يستدلون بالنجوم على القِبلة، ومنها أنها زينة السماء، ولا بأس في تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل، ونحو ذلك، مما يتوصل به إلى مصلحة دينية، قال العلامة ابن حجر: والمنهي عنه من علم النجوم، ما يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في المستقبل، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق، فأمَّا الإخبار عمَّا يُدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم، الذي يُعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي من الوقت، فإنه لا إثم فيه، بل هو فرضُ كفاية ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي بيَّنا الآيات التكوينية، والحجج الدالة على شؤونه تعالى، فصلاً، فصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معاني الآيات المذكورة، ويتفكرون في عظمة، الخالق جلَّ وعلا، وتخصيص التفصيل بهم، لأنهم المنتفعون به.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ تذكير لنعمة أخرى، فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد، أقرب إلى التوادّ والتعاطف، وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرارٌ في الأصلاب، واستيداع في الأرحام، وقيل: المستودعُ: القبرُ، والمستقرُّ: إما الجنةُ أو النارُ، وقال مجاهد: المستقر على الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ﴾ والمستودع القبرُ ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذكر تعالى مع النجوم. ﴿يَعلَمُونَ﴾ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق آدم ﴿يَفقَهُونَ﴾ لأن إنشاء بني آدم من نفسٍ واحدة دقيقٌ يحتاج إلى استعمال فطنة، وتدقيق نظر[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تذكير لنعمة أخرى، منبئةٍ عن كمال قدرته عزَّ وجل ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي بسبب الماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي أخرجنا بهذا الماء من جميع أنواع النبات ما هو غذاء للبشر ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ خَضِر اللونُ، خَضَراً من باب تعب فهو خضِر وأكثر ما يستعمل الخضر، فيما تكون خضرته خَلْقية، والخَضِرُ بمعنى الأخضر، والمعنى: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له، شيئاً غضّاً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي نُخرج من ذلك الخَضِر ﴿ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي بعضه فوق بعض، وهو السنبل المنتظم للحبوب، متراكبة على هيئة مخصوصة، مثل سنبل القمح، والشعير، والأرز ونحوها،

---

(١) في القرآن أسرار دقيقة، لا يفطن لها الإنسان إلاَّ بإمعان النظر، وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز، فقد عبَّر تعالى عن الأمور التي تحتاج إلى تفكر وتبصر بقوله: ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ إشارة إلى أن أطوار الخلق في الإنسان، وما احتوى عليه من العجائب، أمر خفيٌّ تتحيَّر فيه الألباب، فلذلك ختمت الآية بقوله: ﴿لقوم يفقهون﴾ أي يفهمون ويدركون الأسرار والدقائق، بخلاف النجوم فإن أمرها ظاهر مشاهد، لا تحتاج إلى كثير عناء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ فتدبر دقائق أسرار القرآن!!.

وتقديم الزرع على الأشجار، لأن حاجة الناس إليه أكثر ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ النخل يستعمل في الواحد والجمع ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ الطلع شيء يخرج من النخل كأنه غُبَارٌ، والطَّلْعُ أول ما يبدو من ثمر النخل، فإذا شق كيزانه سمي عِذْقاً وهو القِنْوُ ﴿قِنْوَانٌ﴾ وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿دَانِيَةٌ﴾ سهلة للمجتني، قريبةٌ من القاطف، وقيل: المراد دانية من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي وأخرجنا به جنات من أعناب ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ منصوبان على الاختصاص، وتخصيصهما بالذكر لعزة هذين الصنفين عندهم، ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها، نحو استويا وتساويا، أي مختلفاً في الطعم، والقدر، واللون، وغير ذلك من الأوصاف، الدالة على كمال قدرة صانعها، قال قتادة: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي إذا أخرج ثمره، كيف يثمر ضئيلاً، لا يكاد ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي نُضجه وإدراكه كيف يصير إلى كماله اللائق به، ويكون شيئاً جامعاً لمنافع جمة؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات عظيمة، دالة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة من أصل واحد، وانتقالها من حال إلى حال، بشكل بديع، تحار في فهمه الألباب، لا يكون إلا بإحداث عالم، قادر، يعلم تفصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته، ولا يقدر على ذلك أحد، إلا الله عزَّ وجل، ولذلك عقّب الله بتوبيخ من أشرك فقال سبحانه:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ الذي شأنه ما فُصِّل ﴿شُرَكَآءَ﴾ في الألوهية ﴿ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال

من فاعل جعلوا، والمعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم، دون الجن، وليس مِن يخلق كمن لا يخلق؟ ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له، قال الفراء: يقال خَلَق الإفكَ، واختلقهُ، وخَرَقَهُ بمعنىً، وقال الراغب: أصلُ الخرق قطعُ الشيء على سبيل الفساد، من غير تفكير ولا تدبر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو ضدُّ الخلق، فإنه فعل الشيء بتقديرٍ ورفق، أي وزوَّروا له ونسبوا إليه ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله، والله تعالى منزَّهٌ عما قاله السفهاء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير علم بمرتبة ما قالوه، وأنه من الشناعة بحيث لا يُقادر قدرُه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدّس عما قالوه، من أنَّ له شريكاً أو ولداً، وهذه غاية السفاهة والجهالة، فكيف يجعلونهم شركاء وهو المنزَّه عن المثيل والنظير؟

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما بغير آلة، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، ومعنى ذلك: أن إبداعه لهما لا نظير له، لأنهما أعظم المخلوقات الظاهرة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾؟ أي من أين يكون أو كيف يكون له ولد؟ لأن الولد جزء الوالد، والله تعالى منزَّهٌ عن الجزئية والبعضية بالكلية، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي كيف يكون له ولد، وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكيف يتصور أن يكون المخلوقُ ولداً لخالقه[1] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا تخفى عليه خافية.

---

(١) الغرض من الآية الردُّ على من نَسَب لله الولد، من وجهين:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعُها.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للمشركين، والإشارة إلى المنعوت بجلائل النعوت ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أخبارٌ أربعة مترادفة، أي ذلك الموصوف، هو الله المستحق للعبادة خاصة، مالك أمركم، لا شريك له أصلاً، وخالق كل شيء مما كان وما سيكون ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة، أي فاعبدوه، ولا تعبدوا مَن دونه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات، متولي أموركم، فِكُلوها إليه، وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تحيط به تعالى الأبصار، جمع بصر، وهي حاسة النظر، والإدراكُ: اللحاقُ والإحاطةُ، والآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية، فلم يقل تعالى: لا تراه الأبصار، وإنما قال ﴿لا تُدرِكُهُ الأَبصْرُ﴾ أي لا تحيط به إحاطة معرفة وشمول كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ واستدلال المعتزلة بالآية على نفي رؤية الله في الآخرة وهو خطأ كبير، لمعارضتها للنصوص الثابتة الصريحة في رؤية المؤمنين لربهم في الجنة. قالوا: إن رؤيته تعالى مستحيلة، ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، واحتجوا بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] واستدلوا بما رواه

= **الثاني**: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان بهذه العظمة، فهو غني عن الولد، وعن كل شيء، وهذا غاية الوضوح والجلاء.

(١) سورة القيامة، آية: ٢٢ ـ ٢٣.

الشيخان عن جرير قال: كنا جلوساً ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر وكان بدراً فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر..» الحديث.
وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لا تُدرِكُهُ الأَبصَرُ﴾ أي لا يحيط بصر أحدٍ بالله تعالى، وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة، يقال: رأيتُه وما أدركه بصري، أي ما أحاط به من جوانبه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والشمول، إذ لا تخفى عليه خافية، وخصَّ إدراك الأبصار، مع أنه تعالى يدرك كل شيء، لرعاية المقابلة وهو نوع من البلاغة لطيف ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده، الخبير بشؤونهم ومصالحهم فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبَدنِ، سُميت بصائر لأنها تجلي الحق وتبصره، وهي نورٌ في القلب تستبصر به النفسُ، كما أن البصر نورٌ تبصر به العينُ، والمراد بها ههنا الآيات القرآنية، أي جاءكم القرآن بالآيات البينات، والحجج الواضحات، التي تبصرون بها الهدى من الضلال، فهو كالبصائر للقلوب ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر، وآمن وعمل صالحاً ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ فلنفسه أبصر، ونفعه مخصوص بها ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي ومن لم يبصر الحق، بعدما ظهر له بتلك البصائر وضل عنه ﴿فَعَلَيْهَا ۚ﴾ أي وباله وضرره عليها، لا يضرُّ غيره، وإنما عبر عنه بالعمى تقبيحاً وتنفيراً عنه، وعمى البصائر شرٌّ من عمى الأبصار ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر، والله تعالى هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي مثل ذلك التصريف نصرف الآيات، أي نوضحها ونبينها ليعتبروا ويتعظوا ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ أي قرأتَ وتعلّمت، وليس هذا بوحيٍ منزل، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، وزعموا أنه ﷺ تعلّم من غلام رومي، كان يصنع السيوف بمكة، أو تعلّم من اليهود هذه الأخبار ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ ﴾ أي ولنبيّن هذا القرآن ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الحق من الباطل، فإنهم هم المنتفعون به.

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ أي دم على ما أنت عليه من الشرائع والأحكام، التي عمدتها التوحيد، ولا تلتفت لأفعالهم وأقوالهم، والمقصود تقوية قلبه، وإزالة حزنه ﷺ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ولا تحتفل بأهوائهم، ولا تلتفت إلى أذاهم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ عدم إشراكهم ﴿ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ ﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر، لعدم صرف اختياره نحو الإيمان، وإصراره على الكفر، ولو اختاروا الإيمان لهداهم إليه ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾ أي رقيباً مهيمناً تحفظ عليهم أعمالهم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي من جهتهم تقوم بأمورهم، وتدبير مصالحهم، إنما أنت مبلغ.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح، كأن تقولوا: تباً لكم ولآلهتكم وقيل: إن سبَّ الآلهة، سبٌّ لهم، كما يقال: ضربُ الدابة صفعٌ لراكبها ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا ﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل، بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي لعدم معرفتهم بعظمة الله وجلاله. أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: قالوا يا محمد لتنتهينَّ عن سبِّ آلهتنا أو لنهجونَّ ربك!! فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم، وظاهر الآية وإن كان نهياً عن سب الأصنام، فالغرض النهي عن السبِّ الذي يكون وسيلة إلى سبِّ الله عزَّ وجلَّ، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية وجب تركها، فإن ما يؤدّي إلى الشرّ شرٌّ، والسبُّ عن جهل يقع كثيراً من المختلفين في الدين، يسبُّ يهودي نبيَّ نصراني، والنصراني يسبُّ نبي اليهودي، ويسب شيعي سنياً وينتقص أبا بكر، فيسب السنيُّ علياً، وهذا كله من الجهل والغضب والغيظ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التزيين القوي ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر، بإحداث ما يمكّنهم منه، قال ابن عباس: زيَّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل الكفرِ الكفرَ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم ﴾ مالك أمرهم ﴿ مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم ومصيرهم، بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد بالجزاء، كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلتَ، وفيه نكتة خفية، مبنية على حكمة، وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض، فإنما يظهر مخالفاً لصورته الحقيقية، فإن المعاصي سموم قاتلة، قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة، كالمرأة الفاتنة الحسناء، ستظهر في الآخرة بصورة منكرة قبيحة، عند ذلك يعرفون حقيقة أعمالهم المنكرة.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أي المشركون ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ الجَهْد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة، يُقال: جهد الرجل في كذا أي جدَّ فيه وبالغ، والمعنى هنا أنهم حلفوا، واجتهدوا في الحلف، أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ من مقترحاتهم التي طلبوها، والداعي إلى هذا القسَم، التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات، واستحقار ما رأوا منها، فاقترحوا غيرها، وحالهم هو المكابرة والعناد، والتمادي في العتوّ والفساد ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ والمراد من الإيمان بها: التصديقُ بالنبي ﷺ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي أمر هذه المعجزات عند الله وحده، وفي حكمه خاصة، يتصرف فيها حسب مشيئته، لا قدرة لي على الإتيان بها، وهذا سدٌّ لباب الاقتراح من المشركين ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كلام مستأنف لبيان الحكمة الداعية لعدم مجيء الآيات، خوطب به المسلمون لأنهم كانوا راغبين في نزولها، طمعاً في إسلامهم، أيْ أيَّ شيءٍ يعلمكم أيها المسلمون حالهم، وما سيكون عند مجيء الآيات، فلعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها، فما لكم تطلبون مجيئها؟!.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ أي وما يشعركم أنا نقلِّب أفئدتهم عن إدراكِ الحقّ فلا يدركونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، لإعراضهم بالكلية عن النظر في الآيات الكونية ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي كما كفروا بالقرآن أول مرة، واستمروا على الكفر والضلال ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي نخليهم وشأنهم، بعدما عُلم فساد استعدادهم، وفرط نبُوِّهم عن الحق، وندعهم في طغيانهم متحيرين، لا نهديهم هداية المؤمنين الصادقين!!.

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ أي ولو أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلاَئِكَةُ﴾ فرأوهم بأعينهم، وسمعوا شهادتهم لك بالرسالة بآذانهم، ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ بأن أحييناهم، وشهدوا بحقية الإيمان، وشهدوا بصدق محمد عليه السلام ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ أي جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾ أي لو أحضرنا لديهم كل شيء عياناً ومشاهدة ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ أي ما صح لهم الإيمان، لتماديهم في العصيان ولا ينظرون في شيء من الآيات، نظر استدلال ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذُكر من الأمور الموجبة للإيمان، في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1] والآية بيان لاستحالة وقوع إيمانهم، كأنه قيل: ما كانوا ليؤمنوا إلاَّ أن يشاء الله، وهيهات ذلك، وحالهم حالهم بدليل قوله تعالى: ﴿ونُقلبُ أفْئِدَتَهُمْ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أي ولكنَّ أكثر المسلمين، يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم، أو ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا ﴾ كلام مبتدأ مسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريش له، ببيان أن ذلك ليس مختصاً به، بل

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

هو أمر ابتلي به كلٌّ من سبقه من الأنبياء الكرام، لأن القدر والمنزلة، إنما تظهر بالعدو والأضداد، ألا ترى أن إبراهيم كان خليلاً، سُلِّط عليه نمرود، وموسى كان كليماً سُلّط عليه فرعون، ونبينا ﷺ كان حبيبا سُلّط عليه أبو جهل وكفار قريش، أي وجعلنا لكل نبي عدواً، فعلوا بهم ما فعل بك قومك، فاصبر كما صبروا ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي مردة الفريقين من شياطين الإنس وشياطين الجن، ومعنى هذا الجعل أن سنة الله في الخلق مضت، بأن يكون الشرير المتمرد، العاتي عن الحق، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء عليهم السلام وورثتهم ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يلقي ويوسوس بعض كلٌّ من الفريقين، إلى البعض الآخر، قال مالك بن دينار: إنَّ شيطان الإنس أشدُّ من شيطان الجن، لأني إذا تعوذت بالله تعالى، ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي المموّه منه، المزيَّن ظاهرُه الباطل، من زخرفه إذا زينه ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له أي ليغرُّوهم أو مصدر لفعل مقرَّر، أي يغرونهم غروراً والتغرير بالزخرفة قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان، ولا سيما شياطين السياسة، ارتقاءً عجيباً، فإنهم يخدعون الأحزاب، والأمم، والشعوب، فيصوّرون الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، والشيوعية عدالةً، بتغيير الأسماء، وتزيين أقبح المنكرات، نعوذ بالله تعالى من شرورهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم، ولكن هناك حكمة الابتلاء ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من مكائد، فإن الله ناصرك عليهم وإنما قال هنا ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيما يأتي ﴿وَلَو شَاءَ الله مَا فَعَلُوهُ﴾ فغاير بين الاسمين، فهذه الآية من عداوتهم له ﷺ، التي لو شاء منعهم عنها، ويقتضي ذكره جل شأنه بهذا العنوان، إشارة إلى أنه تعالى مربّيه، وهو في كنف حمايته، وأما الآية الأخرى ـ ١٣٧ ـ فذكر قبلها إشراكهم فناسب ذكره عزَّ اسمه بعنوان الألوهية، التي تقتضي عدم الإشراك،

فكأنه قيل ههنا إذا كان ما فعلوه من عداوتك من فنون المفاسد، فاتركهم وما يفترونه من أنواع المكايد، ولا تبال بهم، فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة، ولك عواقب حميدة، لِتَضَمُّنِ مشيئته سبحانه، على الحكم البالغة.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ صَغَا إلى الشيء: مال، أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليغرَّهم به، ولتميل إليه ﴿ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وإنما خَصَّ بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة، إشعاراً بتعمقهم في الضلال وعدم إيمانهم بالآخرة، بما يلقى إليهم، فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكاره، وآلامها مزينة بالشهوات، فالذين لا يؤمنون بها، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات، ودون هذه الشهوات آلاماً، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادي الرأي، فهم مضطرون إلى حب الشهوات، التي من جملتها مزخرفات الأقاويل، وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال، ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصور منهم الميل إلى المزخرفات، لعلمهم ببطلانها، ووخامة عاقبتها ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم، بعدما مالت إليه أفئدتهم ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ ﴾ أي ليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ له من القبائح، التي لا يليق ذكرها.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أي قل لهم: أفغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم؟ والحَكَمُ أبلغ من الحاكم، لأنه لا يوصف به إلا العادل، يُروى أنَّ مشركي قريش قالوا لرسول الله ﷺ: «اجعل بيننا وبينك حَكَماً من أحبار اليهود، أو من أساقفة النصارى، ليُخْبِرونا عنك بما في كتابهم من

أمرك، فنزلت الآية»[1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي أغير الله أبتغي حكماً، والحالُ أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن، الناطق بالحق والصواب، مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، وغير ذلك من العقائد والشرائع؟ فأي حاجة بعد ذلك إلى الحَكَم؟ فكفى به حاكماً بيني وبينكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم، أن القرآن حقٌّ وأنه كلام الله تعالى لموافقته لما عندهم من التوراة والإنجيل، وفي التعبير عن التوراة والإنجيل باسم الكتاب، إيماء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة، المقتضية للاشتراك في الحقّية والنزول من عند الله تعالى، حيث وجدوه حسبما نعت فيه، وعاينوه موافقاً له في الأصول، ومخبراً عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحي، مع أنه ﷺ لم يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءَهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكّين في أنه منزل من ربك بالحق، فيكون من باب التهييج، وقيل: الخطابُ للأمة وإن كان له ﷺ صورة، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه، لأنه حقٌّ منزل من عند الرحمن.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ شروع في بيان كمال القرآن، أي تمّ كلام الله المنزَّل على خاتم النبيّين ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ مصدران نصبا على الحال، أي صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قدَّر، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا أحد يبدّل شيئاً من كلماته، بما هو أصدق وأعدل منه، فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى؟ فيكون هذا ضماناً للقرآن وآياته بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلا نبيَّ، ولا كتاب بعدها ينسخها، ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يُعلم، فيدخل في ذلك أقوال وأحوال البشر، ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار، وبين بالدليل صحة النبوة، أرشد إلى أنه بعد ظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقلُ إلى كلمات الجهال، فقال عزَّ شأنه:

---

(١) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ٣/ ١١٠ ونسبه إلى الماوردي.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

قولُه سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ المراد بـ ﴿مَن فِي الأرضِ﴾ الناسُ، وبأكثرهم: الكفارُ الضالون المضلّون، أي إن تطعهم بمخالفة ما شرع لك، يضلوك عن الحق، وعن الشريعة التي شرعها الله لعباده، لأن الضال لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما هم عليه من الشرك والضلال ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ وظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، فهم على آثارهم يهتدون ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون، وأصلُ الخرص: القولُ بالظنِّ والتخمين، وهو أقبحُ أنواع الكذب، أي يكذبون على الله سبحانه، فيما ينسبونه إليه، كاتخاذ الزوجة، والولد، وعبادة الأوثان، وتحليل المُتْعة، وتحريم البحائر، وغير ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضل عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرٌ مرتب على النهي عن اتباع المضلين، رُوي عن ابن عباس قال: جاء اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما يقتل الله تعالى؟ فأنزل الله الآية. أي إذا كان

أمر أكثر الناس على الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولو كان من البحائر، والسوائب، ونحوها[1] ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحل الله، واجتناب ما حرَّمه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله، تقديره: فكلوا مما ذُكر عليه اسمُ الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾؟ وأيُّ غرضٍ لكم في أن تتحرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب، عن أكل ما ذُكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب، ونحو ذلك، وسبب نزول الآية، أن المسلمين كانوا يتحرجون من أكل الطيبات تزهداً، فنزلت[2] ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً﴾ الآية، فبقي ما عدا ذلك على الحل ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حُرِّم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ أي كثير من الكفار، يُضلّون الناس بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشهيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم، المقتبس من الشريعة، بل بمجرد الأهواء والشهوات، يُضلّون غيرهم كما ضلوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بالمتجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فيجازيهم على صنيعهم، والمرادُ بهم هذا الكثير، ووَضَع الظاهر موضع ضميرهم، لوصفهم بصفة الاعتداء.

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٤٦ ولفظه: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الآية.

(٢) انظر تفسير ابن الجوزي ٣/ ١١٢.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي اتركوا المعاصي ما يُعلن منها وما يسرُّ، وما بالجوارح وما بالقلب، روي أن أهل الجاهلية، كانوا يرون أن الزنا إذا ظهر كان إثماً، وإذا استتر فلا إثم فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ أي يكتسبون الإثم من الظاهر والباطن ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي سيلقون جزاء إجرامهم في الآخرة، بقدر ما كانوا يبالغون في إفساد فطرتهم، بالإصرار عليه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر الآية في تحريم متروك التسمية، عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب أحمد وقال مالك والشافعي ذبيحة المسلم حلال، وإن لم يذكر اسم الله عليها، وفرَّق أبو حنيفة بين العمد والنسيان قال: إن ترك التسمية عمداً حرم، وإن تركها نسياناً حلَّ لحديث «رُفع عن أمتي الخطأ و النسيان وما استكرهوا عليه»[1] ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي يوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الذين اتبعوهم من المشركين فيما أنهوا إليهم بقولهم: إن محمداً وأصحابه، يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال، وما يقتله الله حرام، يعنون الميتة ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بالوساوس الشيطانية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام، وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره، فقد أشرك به تعالى، بل آثره عليه سبحانه، والظاهر أن التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك، من باب التغليظ.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٤٠٠ في الحدود، وإسناده حسن.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ هذا تمثيل للمؤمنين والكفار، فالمؤمنون مستنيرون بأنوار الوحي الإلهي، والمشركون خابطون في ظلمات الكفر، فكيف يُعقل إطاعتهم لهم؟ والهمزةُ للإنكار والنفي، أي أو من كان ﴿ميتاً﴾ أي كافراً ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي فأعطيناه الحياة المعنوية، لأن الإيمان حياةُ القلوب ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ مع ذلك ﴿نُورًا﴾ عظيماً، يميز به الحقّ والباطل، وهو نور القرآن لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ من الظُّلُمَاتِ إلى النّور﴾[1] ﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾ أي بسببه ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي فيما بينهم آمناً ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي خابطٌ فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ولا يتخلص منها، لأنها قد أحاطت به، ولم يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور، قال ابن عباس: إن المراد بالميت الكافر، وبالإحياء: الهدايةُ، وبالنور: القرآنُ، وبالظلمات: الكفرُ والضلالةُ[2]، والآية نزلت في عمر رضي الله عنه وهو المراد بمن أحياه الله تعالى، وأبي جهل الذي بقي يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك كلُّ من انقاد لأمر الله، ومن بقي على الضلالة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التزيين المذكور، أي كما أبقينا هذا الكافر يتخبط في الظلمات كذلك ﴿زُيِّنَ﴾ من جهته تعالى خلقاً، ومن جهة الشيطان وسوسة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ كأبي جهل وأضرابه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما حكي عنهم من القبايح.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٢) شبه تعالى المؤمن بالحي، الذي استنار قلبه بنور المعرفة والإيمان، فهو يعرف الطريق ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، كما شبَّه الكافر بالميت، الذي يتخبط في ظلمات الضلالة والكفر، لا يعرف المنفذ ولا المخلص، ففي الآية استعارة بديعة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما جعلنا في مكة مجرمين ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ ﴾ وجعلنا بمعنى صيَّرنا، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم، أي جعلناهم مزيناً لهم أعمالهم، مصرين على الباطل، مجادلين به الحق، ليمكروا فيها، وهذا تسلية للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ لأن وباله يحيق بهم، اعتراضٌ على سبيل الوعد لرسول الله ﷺ، والوعيد للكفرة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحيقُ المَكرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾[1] وهذا بيان من معجزات القرآن الكريم، فأولئك المجرمون الذين يعادون الرسول ﷺ ويمكرون في عصرهم، ولا يحيق مكرهم إلا بأنفسهم، قد وقع الأمرُ كما أنبأ الله ذو الجلال، ويكون كذلك من يعادون الحق، ويمكرون بأهله.

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ هذا رجوع إلى بيان حال مجرمي أهل مكة، بعدما بيَّن بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضاً كذلك، أي إذا جاءتهم معجزة أو آية من القرآن، تأمرهم بالإيمان ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ قال المفسرون: قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوّة حقاً، لكنتُ أحقَّ بها، فإني أكثرُ منه مالاً وولداً، وقال مقاتل: نزلت الآية في أبي جهل حين قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

كفرسَيْ رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يُوحى إليه؟ واللهِ لا نرضى به، ولا نتَّبعه أبداً حتى يأتينا وحيٌ كما يأتيه»، وقال الضحاك: سأل كلُّ واحد من القوم أن يختص بالرسالة والوحي، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِىء منهُمْ أَنْ يُؤتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾[1] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة، فإن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هي بفضائل نفسانية، يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده، فيجتبي لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه، فقد جرت عادة الله تعالى، أن يبعث من كل قوم أشرفهم، وأطهرهم جِبلَّةً ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ استئناف ناعٍ عليهم ما سيلقونه من فنون الشر، بعدما نعى عليهم حرمانهم، مما أمَّلوه من عزّ النبوة، وشرف الرسالة، والسين للتأكيد أي سيصيب هؤلاء، المجرمين، على وجه التحقيق واليقين ﴿صَغَارٌ﴾ أي ذلٌّ وحقارةٌ بعد تكبرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من عند الله يذلُّهم به، ويُهينهم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم المستمر، وجزاء مكرهم الشرّير.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ أي يعرِّفه طريقَ الحقّ، ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتسع له، وينفسح لقبوله وهو كناية عن جعل النفس قابلةً للحقّ، مهيَّأة لحلوله، مصفّاةً عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار ﷺ حين سئل عنه فقال: نورٌ يقذفه اللهُ في قلب المؤمن، فينشرح له،

(١) سورة المدثر، آية: ٥٢.

وينفسح، فقالوا: هل لذلك أَمَارةٌ؟ فقال، ﷺ: الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتَّجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل النزول[1] ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي يخلق فيه الضلالة، لسوء اختياره ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ بحيث ينبو عن الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿حَرَجًا﴾ شديد الضيق، وهو مأخوذ من الحرجة، وهي الأشجار الملتفُّ بعضُها على بعض، لا يصل إليها شيء ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ شبَّهه مبالغة في ضيق صدره، بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبَّه به على الإيمان يمتنع عنه، كما يمتنع عنه الصعود، وأصل يصَّعَدُ يتصعَّد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجعل ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي العذاب والخذلان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي على الكفرة المجرمين الذين لا يؤمنون بآيات الله.

قال مجاهد: الرجسُ ما لا خير فيه، وقال الزجاج: هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذه الآية الكريمة، معترك أهل الكلام، فالقدرية ينكرون خلق الخَلْق بتقدير سابق من الله تعالى، ويقولون: إن الآية ظاهرة في أن هداية الإنسان يخلق في صدره انشراحاً للإسلام، وهذا الخلق يحصلُ أُنُفا أي جديداً غير مرتب على تقدير سابق، والجبرية يقولون إسلام المرء بفعل الله وحده، ليس باختيار العبد وكسبه، والأشعرية يقولون: له فيه كسب، ولكنه بخلق الله جل وعلا، والإنسان مسؤول عن كسبه وفعله، ويقول المعتزلة إيمان المرء وكفرُه بفعله المستقل، ومن نظر في الكتاب الكريم، يتجلى له الحقُّ، فقد قال تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلّ شيء﴾ وقال ﴿إنَّا كل شيء خلقناه بقدَر﴾ فإن كل شيء بإرادته ومشيئته، وفيه أن المكلف بفعله وكسبه واختياره، ولا يكون فعله منافياً لخلق الله ومشيئته، ولا مستغنياً عن توفيقه وإمداده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري ١٢/ ١٠٠ وانظر ابن كثير ٢/ ١٨١.

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَهَٰذَا ﴾ الذي جاء به القرآن ﴿ صِرَٰطُ رَبِّكَ ﴾ الطريق الذي ارتضاه لعباده، وذكرُ الربوبية، إيذان بأنَّ تقويم ذلك الصراط للتربية، وإفاضة الكمال ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ أي لاعوج فيه، أو عادلاً مطرداً فاستمسك به ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ بيناها مفصلة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها، فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث، خيراً كان أو شراً، فإنما يحدث بقضاء الله وخلقه، وأنه تعالى عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل ويريد، وتخصيصُ القوم بالذكر لأنهم هم المنتفعون.

﴿ ۞ لَهُمْ ﴾ أي للمتذكرين ﴿ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ذخيرةً لهم عنده، لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي مولاهم وناصرهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ نصب بإضمار اذكر والضمير لمن يُحشر من الثقلين ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾ يعني الشياطين بدليل قوله تعالى: ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ ﴾ والمعشرُ: الجماعةُ من الناس، أمرهم واحد، المعشر، والنَّفرُ، والقومُ، والرهطُ، معناهم الجمع لا واحد لهم، للرجال دون النساء ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أتباعكم أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، فحشروا معكم، كقولهم: استكثر الأمير من الجنود، وهذا

بطريق التوبيخ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن، بأن دلّوهم على الشهوات، وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس، بأن أطاعوهم، وحصّلوا مرادهم، وكانوا وسطاء في الإغواء والتضليل، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان، واتباع الهوى، وإظهار الندامة عليها ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين، للإيذان بأن المضلين قد أُفحموا، فلم يقدروا على الكلام أصلاً ﴿قَالَ﴾ ربنا عزَّ وجل ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ومحل إقامتكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي ماكثين في نار جهنم أبداً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قبل الدخول، وهو ما بين الحشر إلى دخول النار، كأنه قيل: النار مثواكم أبداً، إلا ما أمهلكم الله، وقيل: هذا الاستثناء معلق بمشيئة الله تعالى، وفائدته إظهار القدرة، وكان من الجائز العقلي في مشيئته تعالى أن لا يعذبهم، ولو عذَّبهم ألاَّ يُخَلِّدهم، وليس بأمر واجب عليه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم، وبما يليق بهم من الجزاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضًۢا﴾ آخر منهم، أي نجعلهم بحيث يتولونهم، بالإغواء والإضلال وغير ذلك، واستدل به على أن الرعية إذا كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، كما ورد في الأثر «كما تكونون يولَّ عليكم»[1] ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوه من الكفر.

---

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: «إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم» وعن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: «إني أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة» التفسير الكبير للفخر الرازي.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ توبيخ المعشرَيْن بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ ﴾ في الدنيا ﴿ رُسُلٞ ﴾ من عند الله عز وجل ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ من جملتكم، لأن الرسل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما للإيذان بتقاربهما واتحادهما، تكليفاً وخطاباً، كأنهما جنس واحد، فقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن، وأنذروا به قومهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرآنَ﴾[1] الآية وقال الضحاك: إن الله تعالى أرسل للجن رسلاً منهم، كذلك، وادعى البعض قيام الإجماع على أن الله لم يرسل إلى الجن رسولاً منهم كما يدل عليه ظاهر الآيات، كحصر الرسالة في الرجال وجعلها في ذرية نوح، وإبراهيم، وجملة القول أنه ليس في المسألة نص قطعي، فنحن نؤمن بما ورد، ونفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ أي يتلون عليكم آيات ربكم التي بها سعادتكم وفلاحكم ﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ ﴾ أي يخوفونكم ﴿ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ يوم الحشر، الذي عاينوا فيه أفانين العقاب ﴿ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾ أي بإتيان الرسل وإنذارهم، وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب، كما حكى تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ اعتراض لبيان ما أداهم إلى ارتكاب القبائح، أي اغتروا في الدنيا بالحياة الفانية ﴿وَشَهِدُوا﴾ في الآخرة ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من أمرهم ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ «أَنْ» مخففة من «إنَّ» وضمير الشأن اسمها، والمعنى ذلك ثابت لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب أيّ ظلم فعلوه، قبل أن يُنهوا عنه، بإنزال كتاب، وإرسال رسول، لأن الله عادل فلا يعاقب أحداً إلا بعد الإنذار ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي وهم غافلون لم ينبهوا برسول، وإنما علّل بما ذكر لبيان كمال نزاهته سبحانه عن الظلم.

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من المكلّفين من الثقلين، الذين بلغتهم الدعوة ﴿ دَرَجَٰتٌ ﴾ أي مراتب متفاوتة ﴿ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ ﴾ أي من أعمالهم، صالحة كانت أو سيئة، سيجازون عليها ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس الله غافلاً ولا ناسياً لأعمال العباد، بل هو رقيب عليهم، مطلع على أقوالهم وأفعالهم، وفيه تهديد ووعيد للإنس والجن، وأنه سبحانه سيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ عن العباد والعبادة، المعروف بالغنى عن كل ما سواه، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لإظهار

اللطف به، وتنزيه ساحته عن شمول الوعيد الآتي له ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي الموصوف بالرحمة العامة، فيترحَّم على العباد، ويمهلهم على المعاصي إلى ما شاء، وفيه تنبيه على أن الإرسال للرسل، ليس لنفسه، بل رحمةً من الله على العباد ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة، إن يشأ يذهبكم أيها العصاةُ، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُمْ﴾ أي وينشىء من بعد إذهابكم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق والعباد، يكونون أعْبَدَ منكم لله، وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحماً عليكم، وتضمنت الآية التحذير من بطش الله عز وجل وانتقامه من العصاة المجرمين.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله، والحساب والثواب والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ لكائن لا محالة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[1] وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه، بتصويره بصورة طالب حثيث، لا يفوته هارب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولستم معجزين ربكم، ولا خارجين عن قدرته وعقابه وإن ركبتم في الهرب، متن كل صعب وذلول.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وهو أمرٌ له عليه السلام بطريق التلوين، بأن يواجههم بتشديد التهديد، وتكرير الوعيد، ويُظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين، وعدم المبالاة بهم، أي قل يا رسول الله ﴿ياقومي﴾ وفي هذا النداء ضرب من الاستمالة لهم، يذكِّرهم بأنهم قوم الرسول، الذين يحرص على خيرهم ومنفعتهم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاداة، والغرض منه التهديد والتخويف، لا أنه أمر وطلب ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة، والثبات على الإسلام ﴿فَسَوْفَ

---

(١) سورة المرسلات، آية: ٧.

﴿تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة، أي فسوف تعلمون أيُنا له العاقبة الحسنى، التي خلق الله تعالى لها هذه الدار، وفيه مع الإنذار، إنصافٌ في المقال، وحسن الأدب، وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق ﴿إِنَّهُۥ﴾ أيّ الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظلم موضع الكفر، إيذاناً بأن امتناع الفلاح، يترتب على أي فردٍ من أفراد الظلم.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ شروعٌ في تقبيح أحوالهم، بحكاية أقوالهم وأفعالهم السخيفة، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلامهم، أي وجعل مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي ممَّا خلق وأوجد من أنواع المخلوقات ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ يعني الزرع والثمر ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني من نتاج الإبل، والبقر، والغنم، جعلوا لله تعالى أشياء، وأشياء منها لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً، أخذوه فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه، وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان، جبروه مما جعلوه لله، معتلّين بأن الله تعالى غنيٌّ، وما ذلك إلا لحب آلهتهم، وإيثارهم لها، فما جعلوه لله صرفوه للضِيفانِ والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها، وعلى خدّامها، وفيه تنبيه على فرط جهالتهم، حيث أشركوا الخالق في خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجّحوه عليه تعالى[1] ﴿نَصِيبًا﴾ أي جعلوا لله نصيباً، ولأصنامهم نصيباً،

(١) قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله=

ولم يذكر اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمر الله تعالى به، والمراد بالشركاء الأوثان، وسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي فما عيَّنوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عيَّنوه لله تعالى، وما عيَّنوه لله يُصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لآلهتهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ من إيثار مخلوق عاجزٍ عن كل شيء، على خالقٍ قادرٍ على كل شيء، وعملُهم العجيب لا يقبله عقل ولا شرع، ولذا نسب إلى الإساءة.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك التزيين في قسمة الحرث والأنعام ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي مشركي العرب ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ فكانوا يئدون البنات الصغار، بأن يدفنوهنَّ أحياء، وكانوا في ذلك فريقين: أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه، فألحقُوا البنات بالله تعالى، والآخر يقتلهن خشية الإنفاق وكانوا ينذر أحدهم إذا بلغ بنوه عشرة أن ينحر واحداً منهم ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ من الشياطين أو من السَّدنة، سميت الشياطين شركاء، لأنهم أطاعوهم في المعصية، وقتل الأولاد، وقال الكلبي: هم سدنة آلهتهم، لأنهم كانوا يزيّنون قتل الأولاد

= منه جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمّي لله، ردُّوه إلى الوثن وقالوا: إن الوثن فقير، والله غني، وأخذوا حق الله فجعلوه للأصنام أ هـ، تفسير ابن كثير ٢/١٨٦.

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي يهلكوهم بالإغواء، والتزيين الرديء الفاسد، الذي يذهب بما أودع الله في قلوب الوالدين من عواطف الرحمة والرأفة، بل يقلبها إلى منتهى الوحشية، حتى يقتل ريحانة قلبه ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، حتى انحرفوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم فعلهم ذلك ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم الشياطين ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فدعهم وما يختلفونه من الإفك والكذب على الله، وهو وعيد وتهديد للمشركين شديد.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي ممنوع منها ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدم الأوثان، من الرجال دون النساء ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك متلبِّسين بزعمهم الباطل، من غير حجة ﴿وَأَنْعَامٌ﴾ أي وهذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها اسم الأوثان والأصنام ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي على الله سبحانه، وجملةُ القول أنهم قسموا أنعامهم إلى هذا التقسيم، وجعلوه من أحكام الدين، ونسبوه إلى الله تعالى افتراءً عليه سبحانه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بسببه، وفي إبهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ ﴾ يعنون به أجنة البحائر، والسوائب، كما روي عن مجاهد ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ أي حلال لهم خاصة، إن وُلد حياً، دون الإناث ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ وهن الإناث باعتبار اللفظ ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ أي وإن ولدت ميتة ﴿ فَهُمْ ﴾ أي الذكور والإناث ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما خرج من بطون الأنعام ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ أي يأكلون من الميتة جميعاً ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي جزاء وصفهم الكذبَ على الله تعالى، في التحليل والتحريم، كقوله تعالى: ﴿وتصف ألْسِنَتُهم الكَذِبَ﴾ ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي حكيم في تدبيره، عليم بخلقه، والحكيم العليم لا يترك جزاءهم، الذي هو من مقتضيات الحكمة، واستدل بالآية، على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور، دون الإناث، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف، لأن ذلك فعل الجاهلية، واستدل بعض المالكية بمثل ذلك في الهبة، وأخرج البخاري عن عائشة قالت: «يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده، إنْ هذا إلا كما قال الله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾»[1].

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ﴾ وهم قبيلة ربيعة، ومضر، وأضرابهم من العرب، الذين كانوا يئدون بناتهم، مخافة السبي والفقر، أيّ خسروا دينهم ودنياهم ﴿ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لخفة عقولهم، وجهلهم بأن الله رازق أولادهم لا هم، ولذا سُمُّوا جاهلية ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما وهذا أيضاً من الجهالة ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ وهذا أيضاً من الجهالة لأن الجرأة على الله تعالى، والكذب عليه من أعظم الذنوب ﴿ قَدْ ضَلُّوا ﴾ عن

---

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على عائشة رضي الله عنها.

الطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه وأن هدوا بفنون الهداية، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ قَتَلُوا أولادهُم سَفَها بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ الله افتِراءً عَلَى الله قَد ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهتَدِينَ﴾[1].

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ أي هو الله الذي خلق بساتين من غير شركة لأحدٍ فيها ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ المعروشات من الكرم: ما يُحمل على العريش، وهي عيدان تصنع كهيئة السقف يُوضع الكرم عليها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض على حالها، وقيل: إن المعروش ما يحتاج إلى العريش من الكرم، وغير المعروش هو القائم من الشجر، المستغني باستوائه، وقوة ساقه ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ أي أنشأهما كذلك ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي ثمره الذي يؤكل، مختلفاً في الهيئة والكيفية ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والشكل ولا يتشابه في الطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم ينضج، وفائدة رخصته في الأكل منه قبل أداء حقه، ولا يتوهم أنه لا يُباح إلا إذا أدرك، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق، لأن رعاية النفس مقدمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2] وفي الخبر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٦/ ٥٥١ فتح الباري.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ الذي أوجبه الله تعالى فيه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وهو في رواية ابن عباس العشر، أو نصف العُشر كما ذهب إليه الحسن وقتادة ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ روي عن ابن جريج قال: نزلت في «ثابت بن قيس» قطف خمسمائة نخلة، ففرَّق ثمرها كلَّها، ولم يدخل منه إلى منزله شيئاً»[1] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم من حيث إسرافهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي خلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يُفرش، أي يُضجع للذبح والأكل، والمراد بها الكبار الصالحة للحمل، والصغار التي تذبح للأكل كأنها فرش ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله منها من الحلال، وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم، ولا تحرموها كما في الجاهلية، وقيل معنى الآية: استحلُّوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ في أمر التحليل والتحريم، تقليد أسلافكم المفترين على الله سبحانه ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي طرقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم أي طرقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبويكم من الجنة.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/١٣٨ قال: والمختار قول عطاء أنه نهيٌ عن الإسراف في كل شيء.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع، أحلَّ لكم أكلها ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أنشأ من الضأن اثنين: الكبش والنعجة، وهي: ذوات الصوف من الغنم، الواحد ضائن، والأنثى ضائنة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ التيسُ، والعنزُ، جمع ماعز كصاحب وصحب، وهي ذوات الشعر من الغنم وهذه الأربعة تفصيل للفرش، الذي هو معظم ما يتعلق به الحلُّ والحرمة ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم، وإظهاراً لعجزهم عن الجواب ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من ذينك النوعين وهما: الكبشُ، والتيسُ ﴿حَرَّمَ﴾ الله عزَّ وجلَّ كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ وهما النعجة والعنز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ أي أم ما حملت إناث النوعين حَرَم، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى، جاءت به الأنبياء يدل على أنه تعالى حرَّم شيئاً مما ذُكر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ هما الجملُ، والناقةُ ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ هما الثور، والبقرة ﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ كرَّره مبالغة في التوبيخ والتقريع، والمعنى كما قال كثير من العلماء: إنكار أنه تعالى حرَّم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وإنما عقَّب كلَّ واحد مما ذُكر من الأمر والإنكار، لما في التكرير من المبالغة في التبكيت والإلزام ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ تكرير للإفحام، أي بل أكنتم شاهدين ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبي، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك، إلاَّ المشاهدة والسماع، وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي من أظلم ممن نسب إليه تعالى تحريم ما لم يُحرِّم بغير دليل ولا برهان؟ ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كائناً من كان، أي لا يوفّقه ولا يرشده إلى طريق الخير والسعادة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أمرٌ لرسولِ الله ﷺ، بعد إلزام المشركين وتبكيتهم، بأن يبيِّن لهم ما حرَّم الله تعالى عليهم، أي قل يا رسول الله ﴿ لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ في القرآن الذي أوحاه الله إليَّ، وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنما يُعلم بالوحي، أي لا أجد بعدما تفحَّصتُ ما أُوحى الله إليَّ ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ أي محرَّما من المطاعم التي حرَّموها ﴿ عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ أيَّ طاعم كان، من ذكرٍ أو أنثى ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ ﴾ ذلك الطعام ﴿ مَيْتَةً ﴾ أي بهيمة ماتت حتف أنفها والمراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً، فيتناول المنخنقة ونحوها ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ أي دماً سائلاً مصبوباً، وقد رُخّص في دم العروق بعد الذبح ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ أي أو أن يكون لحم خنزير ﴿ فَإِنَّهُۥ ﴾ أي الخنزير ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي قذرٌ ونَجَسٌ، لتعوُّدِ الخنزير أكل النجاسة ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ أي أو أن يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ ﴾ أي ذُبح على غير اسم الله ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ أي أصابته الضرورة، الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي غير طالب ما ليس له طلبه، أو غير قاصدٍ التلذذ بأكله ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغٌ في المغفرة، والرحمة، ولا يؤاخذه بذلك، والاستثناء منقطع، أي لا أجد ما حرَّموه، لكنْ أجدُ الأربعة المذكورة التي حرَّمها الله، ولا دلالة في الآية على الحصر، وإنما هو ردّ لمزاعم أهل الجاهلية، فيما حرَّموه من تلقاء أنفسهم.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ .

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ أي اليهود خاصة عقوبةً لهم ﴿ حَرَّمْنَا ﴾ فوق ماذُكر من المحرمات الأربعة ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ أي ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن زيد أنه الإبل فقط ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ لا لحومهما، فإنها باقية على الحل ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ استثناء من الشحوم، أي ما علق بظهورهما والجنب، من داخل بطونهما من الشحم، ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ أي ما حملته الحوايا وهي ما على الأمعاء من المباعر والمصارين ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ وهو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك التحريم ﴿ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وكانوا كلما أتوا بمعصية، عُوقبوا بتحريم شيء ممَّا أُحلَّ لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدَّعون أنها لم تزل محرمة على الأمم، فردَّ ذلك عليهم بقوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۚ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ الضمير لليهود والمشركين، أي فإن كذبَّك اليهود، وأصرُّوا على ادعاء قدم التحريم، وكذلك المشركون فيما نُقل من أحكام

التحليل والتحريم ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي، بل يمهلكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي لا يدفع عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، فلا تغتروا بذلك، فإنه إمهال لا إهمال، وهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم، وإخباره قبل وقوعه، ثم وقوعه حسبما أخبر، برهان ساطع على أنه كلام الله تعالى، لأنه إخبارٌ عن غيب ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ لما فعلنا الإشراك نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مما حرَّمنا، أرادوا به أن مافعلوه مرضيٌّ عند الله تعالى، كما أخبر الله عنهم في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[1] فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قل إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ﴾. ولو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله، وإجلالاً له، ومعرفة بحقه، لما عابهم، ولكنهم قالوا هذا تكذيباً واستهزاء، وجدلاً من غير معرفة بالله تعالى، ويؤيده قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذَّب هؤلاء، كذَّب أسلافهم المشركون قبلهم كذّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي حتى ذاقوا عذابنا، الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، وهو عذاب الاستئصال. وبعد هذا التذكير، أمر الله النبي ﷺ أن يطالب المشركين، بدليل علمي على زعمهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾؟أي من أمرٍ معلوم، يصحُّ الاحتجاج به على ما زعمتم؟ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي فتظهروه لنا على أتم وجه؟ والاستفهام للتعجيز والتوبيخ، ولذلك عقَّب تعالى عليه، ببيان حقيقة حالهم، فقال ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتَّبعون في ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً[2] ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي

---

(١) الأعراف، آية: ٢٨.

(٢) قال ابن الجوزي ٣/ ١٤٥: جعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل، فكأنهم =

تكذبون على الله تعالى، وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الإطلاق، بل فيما يعارضه نصٌّ قطعي .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أنْ لا حجة لكم فقِل ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ﴾ التي بلغت غاية الظهور والإقناع، والمراد بها الكتاب المبين ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها، والحمل عليها، ولكنْ شاء أن يترك للعباد، أمر الاختيار في الإيمان والكفر، ليتمَّ التكليف ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنَ ومَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي أحضروهم للشهادة على صحة ما تزعمون و«هلمَّ» اسم فعل أمر، بمعنى أَحضر، وهات، ويستوي فيه الواحدُ، والجمعُ، والمذكَّرُ، والمؤنَّثُ، بمعنى الدعاء إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم، والمقصود من إحضارهم فضيحتهم، وإظهار أن لا متمسَّك لهم، وقوله ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما حرَّموه من الأنعام وهو طلب تعجيز ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ بعدما حضروا بأن الله حرَّم هذا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ، وبيِّن لهم فساده ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي لا تتّبع أهواء الضالين المكذبين لآيات الله، فإنما يتبعون الهوى، وهو شقاء وضلال ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عديلاً أي شريكاً، والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله، وبين الكفر بالآخرة، وبين الإشراك به سبحانه فإنهم جامعون لها متصفون بها.

= قالوا: لو لم يرضَ اللهُ ما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لمَ تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالون، فهم على المشيئة أيضاً، فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر. أ هـ.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ .

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أمرٌ له عليه السلام بعدما ظهر له بطلانُ ما ادَّعوا على الأسلوب الحكيم، أي تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم على وجه اليقين، لا بالظن والتخمين ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أقرأ الذي حرمه ربكم عليكم، وفي ذكر الربّ وإضافته إليهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ لاستمالتهم إلى امتثال الأمر، لأنه يربيهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ بدأ سبحانه بأمر الشرك، لأنه أعظم المحرمات، وأكبرالكبائر ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ أي أحسنوا بهما ﴿ إِحْسَانًا ﴾ كاملاً، لا إساءة معه، وإنما ذُكر ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدّه، فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحساناً، والسرُّ في الأمر بالإحسان، المبالغةُ والدلالةُ على أن ترك الإساءة إليهما، غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما، ولهذا لم يقل: ولا تسيئوا إليهما، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أمْلَق إملاقاً: افتقر، أي لا تقتلوهم خشية الفقر، لئلا تروهم جياعاً ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أي نحن نرزق الفريقين، رزقُكم ورزقُهم علينا، فلا تخافوا الفقر، وتُقدموا على ما نهيتم عنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ أي المنكرات الكبائر، كالزنى وشرب الخمر ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي ما يُفعل علانية في الحوانيت، كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان، كما هو عادة رؤسائهم وكبرائهم، وتعليق النهي بقربانها، للمبالغة في الزجر، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها، بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد، فيخرج الحربي ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالقصاص، وقتل المرتد، ورجم

المحصن[1] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذُكِر من التكاليف الخمسة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً، ولمَّا كانت الأمور المنهي عنها، مما تَقتضي بديهة العقل بقبحها، ختمت الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أي تستعملون عقولكم التي تحبسها عن مباشرة القبائح المحرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا بوجهٍ من الوجوه لمال اليتيم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالفعلة التي هي أحسن الأفعال بماله، كحفظه وتثميره، ونحو ذلك، والخطابُ للأولياء، والأوصياء، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فإنه غاية لما يُفهم من الاستثناء، لا للنهي، كأنه قيل: احفظوه حتى يبلغ، فإذا بلغ فسلموه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فإن آنستم منهم رُشْدَاً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[2] والأشدُّ جمع لا واحد له، والمراد به بلوغ الحلم ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ أي أتمُّوا ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ أي المكيل ﴿وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والتسوية، من غير زيادة ونقصان ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل، للإيذان بأن مراعاة العدل على وجه الدقة، لا يتحقق في كل مكيل وموزون، إلا إذا كان بميزانٍ دقيق كميزان الذهب، وفي التزام ذلك في

(١) لما رواه الشيخان عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ دم امرىء مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيِّب ـ أي المتزوج ـ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

بيوع الحبوب والفواكه، حرجٌ عظيم، كأنه قيل عليكم بما في وسعكم، بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به، وما وراء ذلك معفو عنكم، ويجوز أن يكون المعنى: جميعُ ما كلفناكم به ممكنٌ غير شاق، ونحن لا نكلف ما لا يُطاق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة الواجب ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ فيه وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ذا قرابة منكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[1] فالعدل واجبٌ في الأقوال، كما أنه واجب في الأفعال، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركنُ العمران، وقطبُ رَحَى النظام ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور، أو أيَّ عهد كان، كنذرٍ ونحوه ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون وتتعظون، وتعملون بمقتضاه، وهذه الأحكام العشرة لا تختلف باختلاف الأمم، والأعصار، وهنَّ محرمات على بني آدم جميعاً، ولما كانت هذه التكاليف الخمسة في هذه الآية، تحتاج إلى تبصر وتذكر، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ إشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة الغراء، وقال ابن عباس ﴿هذا﴾ الإشارة إلى شريعة الإسلام، ويلائمه النهي الآتي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ، ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ والأصل «تتفرّق» أي فتفرّقكم عن سبيل الهدى ودين

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

الإسلام، الذي لا عوج فيه ولا انحراف. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله تعالى مستقيماً، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله، ثم قال: هذه السُّبُل، ليس منها سبيلٌ إلاَّ عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية[1] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله، وترك اتباع سائر السبل ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عن اتباع سبل الكفروالضلالة، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه، ونهى عن اتباع غيره، ختم ذلك بالتقوى، التي هي اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية[2]، وكرر سبحانه الوصية، ويا لها من وصية، ما أعظم شأنها!! ولهذا ورد عن ابن مسعود أنه قال: من سرَّه أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ بخاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوا... تَتَّقونَ﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ شافياً كافياً، والمراد بالكتاب التوراة ﴿تَمَامًا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٣٥ ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٠ حيث كانت المحرمات الأُوَل واضحة لا يقع فيها عاقلٌ نظَرَ بعقله، جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأُخر شهواتٌ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكَّرون﴾ ثم لمَّا كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾!!.

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي أعطيناه التوراة تماماً للكرامة والنعمة، على من كان محسناً وصالحاً، وهو موسى عليه السلام الذي أحسن العبادة والطاعة لله منّةً عليه منّا، لما سلف منه من حسن العبادة والمجاهدة في سبيل الله ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي بياناً مفصّلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ أي دلالة الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين من أتباعه من بني إسرائيل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بالبعث والثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون، وعن ابن عباس المعنى: كي يؤمنوا بالبعث، ويصدّقوا بالثواب والعقاب.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم، الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن، لا يُقادر قدره ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بواسطة الروح الأمين، مشتملاً على فنون الفوائد الدينية والدنيوية ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخيرات والمنافع ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم، فإنَّ عظم شأن الكتاب في نفسه، وكونه منزلاً من جنابه عزَّ وجل، موجبٌ لاتّباعه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى، وتخصيص الإنزال بكتابهما، لأنهما اللذان اشتهرا حينئذ من الكتب السماوية ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ أي وقد كنا عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا ندري ما هي؟ وهذا خطاب لأهل مكة، لقطع عذرهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾

إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ أي لا تعتذروا يا أهل مكة بذلك فقد جاءكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أي حجة واضحة تعرفونها لظهورها وكونها بلسانكم، وهذا هو الجواب القاطع لكل من اعتذر، فإن القرآن بيّنةٌ عظيمة، مبيّنةٌ للحق، في العقائد، والفضائل، والشرائع، كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يربيكم ويتعهد مصالحكم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهداية ورحمة من رب الأرباب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ أي لا أحد أظلم وأفجر ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ممن كذّب بالقرآن، ولم يؤمن بآياته البينات، وعبَّر عما جاءهم ﴿بآيات الله﴾، تهويلاً للأمر، وتنبيهاً على أن تكذيب أي آية من آيات الله، كافية في الكفر، فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل؟ ﴿وَصَدَفَ﴾ أي صرف الناس ﴿عَنْهَا﴾ عن الآيات، فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم وضلالهم أيضاً ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي العذاب القبيح السيِّىء، الشديد النكاية ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يَصدِفُونَ﴾ أي يعرضون عن آيات الله، ويمنعون الناس عن الهداية والإيمان، وذكره بصيغة المضارع ﴿يَصدِفُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، أي هم في كفر دائم، وإعراض مستمر.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بالعذاب[1] ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ

(١) قال الطبري ١٢/ ٢٤٥ ﴿أو يأتي ربك﴾ أي يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه.

رَبِّكَ﴾ أي أشراط الساعة الكبرى، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، والسياقُ الناطق بعدم نفع الإيمان، عند إتيان ما ينتظرونه، يستدعي أن يُحمل ذلك على أمور هائلة، وهو الأنسب لقوله تعالى: ﴿قل انتظروا إنَّا منتظرون﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ لما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس، آمن مَنْ عليها، فذلك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾»[1] وإنما لم يقبل الإيمان في ذلك الوقت، لأنه ليس بإيمان اختياري، وإنما هو إيمانٌ لخوف الهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ﴾[2] فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند الغرغرة، والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً، لم تقدّم إيمانها، أو قدمته ولم تكسب فيه خيراً، ومن ضرورة اشتراط النفع بتحقيق الأمرين معاً، أن الإيمان وحده لا يكفي في ذلك الحين، وفي ذلك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة، وللمعتزلة جدال في هذه الآية، يستدلون بها أن الإيمان لا ينفع بدون عمل الخير، ويمنع ذلك الآخرون، والتحقيق في المسألة أن الإيمان الصحيح، يستلزم العمل في الجملة، دون الشمول، فيجوز عقلاً أن يترك المؤمن بعض الواجبات، أو يرتكب بعض المحرمات، ولكنه يتوب ويموت قبل أن يتمكن من العمل، وما أظن أنه يوجد عاقل يختلف في نجاة مثل هذا بمجرد الإيمان ﴿قُلِ﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿انتَظِرُوٓا﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد هذه الأمور ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك، وحينئذ نشاهد ما يحلُّ بكم من سوء العاقبة، وفيه تأييد لكون ما ينتظرونه إتيان أمره تعالى بالعذاب، ووعدُ الله للرسول ﷺ والمؤمنين، بمعاينتهم لما يحيق بهم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/٢٩٧ ومسلم ٢/١٩٤ وأبو داود ٤/١٦٣ وفي رواية أخرى في الصحيح «فإذا طلعت ورآها الناسُ، آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ، ثم قرأ الآية».

(٢) سورة المؤمن، آية: ٨٤.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ روي عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت في اليهود والنصارى، أي بدَّدوا دينهم، وفرَّقوه أبعاضاً، فتمسك بكلٍّ بعضٌ منهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً، كل فرقة تعادي الأخرى. أخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة»[1] قال الخطابي: في هذا الحديث، دلالةٌ على أن هذه الفرق غير خارجة من الدين، إذ جعلهم من أمته ﷺ، ومجموع الآثار الواردة في تفسير الآية تدل على شمولها للتفرق في أصول الدين، بحيث يعادي المسلمون بعضهم بعضاً، كما قالت أم المؤمنين عائشة (رضي) في الثورة يوم قتل عثمان رضي الله عنه: «إلا إنَّ الله ورسوله، بريئان من الذين فارقوا دينهم، فكانوا شِيَعاً» ﴿وكَانُوا شِيَعاً﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً كل فرقةٍ مختلفة عن الأخرى، تتخذ لها إماماً ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أنت بريء منهم، وهم منك برءاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم يوم القيامة كيف يشاء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وقيل: المفرّقون هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة[2] ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يوم القيامة

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنة رقم ٤٥٩٧ والترمذي في الإيمان رقم ٢٦٤١ ولفظ الترمذي: «إن بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٠٤: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه =

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا بعد تعذيبهم بأيديهم، بما مضت سنته عز وجل في الاجتماع البشري، من ضعف المتفرقين، وتسلُّط الأقوياء عليهم، فيذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفرق بينهم من الحروب والشرور، ثم ينبئهم عند الحساب، عاقبة ما ارتكبوه من تفرق وتمزُّق، أنهم كانوا جاهلين بما ارتكبوه.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ المراد من الحسنة ههنا: الإيمانُ، والأعمال الصالحة، أي من جاء بالأعمال الحسنة من المؤمنين ﴿ فَلَهُۥ عَشْرُ ﴾ حسنات ﴿ أَمْثَالِهَا ﴾ فضلاً من الله تعالى، وهذا أقل ما وعد تعالى من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين، وبسبعمائة، وبغير حساب ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ أي بالأعمال السيئة، كالكفر، والعصيان ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب، أو زيادة العقاب، وأمَّا إيجاب كفر ساعة بعقاب الأبد، فلأنَّ الكافر على عزم وتصميم أنه لو عاش أبداً، لبقي على ذلك الاعتقاد أبداً، فيعامل بنيته.

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ ﴾ أي قل يا محمد لأولئك الضالين إن ربي أرشدني بالوحي، وبما نصب في الآفاق والأنفس، من الآيات التكوينية ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق قويم، موصل إلى الحق، وهو دين الإسلام ﴿ دِينًا ﴾

= واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنِّحَل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسوله منهم.

أي هداني ديناً ﴿قِيَمًا﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه، مصدرٌ نُعت به مبالغة، وهو أبلغ من القائم قال الزجاج: وهو مصدر كالصِّغر، والكِبَر، وكان الأصل أن يأتي بالواو «قِوَماً» كما قالوا: عِوَض، ولكنه شذَّ عن القياس، يعني: ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دين الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما كان منهم في أمر من الأمور أصلاً، لأن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لهم، في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم، لأنه عليه السلام كان على دين التوحيد، وفيه ردٌّ على الذين يدعون أنهم على ملته، من أهل مكة القائلين: الملائكةُ بنات الله، واليهود القائلين: عزير ابن الله، والنصارى القائلين: عيسى ابن الله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ أي عبادتي كلها ﴿وَنُسُكِى﴾ أي ذبحي وقرباني ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي حياتي وموتي، وما أقدِّمه في هذه الحياة من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالصة لوجهه عز وجل.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي لا أشرك فيها غيره ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده، والإخلاص في العمل ﴿أُمِرْتُ﴾ لا بشيء غيره ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته أي وأنا أول من خضع وأذعن، وانقاد إلى امتثال ما أمر الله تعالى به.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؟ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أطلب رباً، فأشركه في العبادة؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي والحال أنه خالق مالك كل شيء، وكلُّ ما سواه مربوب له

تعالى، فكيف يُتصور أن يكون شريكا له في الربوبية؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فردَّ عليهم بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولٌ عليها، لا على غيرها، وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي نفسٌ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيداً لما قبله، أي لا تحمل حاملةٌ حِمْلَ أخرى من الذنوب والآثام، وفي الحديث «مَنْ سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ـ أي من بعد ممات من سنّها ـ من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئةً، كان عليه وزرُها، ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] ولا تعارض بين الآية والحديث، فكلٌّ من هذا وذاك، من عمل الهادين والمضلين، لأنهم الذين دعوهم إلى الهدى أو الضلال ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيهٌ له إلى الكل، لتأكيد الوعد، وتشديد الوعيد، أي رجوعكم أيها الناس إلى مالك أمركم يوم القيامة، وهو الله رب العالمين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين، ببيان الرشد من الغي، وتمييز الحق من الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ أي الله الذي جعلكم ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً، كلما مضى قرنٌ جاء قرنٌ، تتصرفون فيها كما يتصرف المالك بملكه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الفضل، والغنى، والرزق، وغير

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة رقم ١٠١٧ وهو طرفٌ من حديث طويل في القوم العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ مسلمين وقد اشتد بهم الفقر، وأنظر تمام الحديث في جامع الأصول ٦/ ٤٥٧.

ذلك ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من المال والجاه، أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم، لينظر ماذا تعملون؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله ﷺ، مع إضافة اسم الرب إليه، لإبراز مزيد اللطف به ﷺ ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي عقابه الأخروي سريع الإتيان، لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله، لأن كل آتٍ قريب ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن رعاها حقَّ رعايتها، وأطاع الله في هذه الحياة، ويجوز أن يُراد بالعقاب عقاب الدنيا، كالذي يَعْقب المجرم من البعد عن الفطرة، وقساوة القلب، وغشاوة الأبصار، وصمم الأسماع ونحو ذلك، وفي الوصفين الواردين على بناء المبالغة، مع التأكيد باللام ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات، لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء، مبالغ في ذلك.

وما ألطف افتتاح هذه السورة بالحمد، وختمها بالمغفرة والرحمة، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما، إنه ولي الإنعام، وله الحمد في كل ابتداء وختام. وهذا آخر الكلام في تفسير سورة الإنعام، والحمد لله الملك العلام، وصلى الله على رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام!.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»

* * *